قابيل رَجَاءُ توقَّفْ
فوفو فاطمة الزهرة

رواية

قابيـــل رَجـاءُ تَوقـف

شايب الدرع فـوفـو فاطمـــة الزهـــرة

تدقيق: مجدي محروس

غلاف: رشا أحمد

رقم الإيداع: 2019/13639

الترقيم الدولي: 978/977_835_121_ 4

زحمة كتاب / اسكرايب للنشر والتوزيع

Email : Scribe20199@gmail.com

الهاتف: 01099727510

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون(30) وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (31) قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم (32) قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (33) وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين (34) وقلنا يا آدم اسكن أنت و زوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما و لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (35) فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين (36) فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم (37) قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (38)) .

صدق الله العظيم

[سورة البقرة : 30-38]

الإهـداء

إلى كل مَنْ عَاهَدَ اللهَ وصَدَقَ..

سَلامًا.. سَلامًا..

جلستْ في شُرفة بيتها. وضعتْ كنزَها الثَّمين فوقَ طاولة صغيرة كانت تتوسطُ المكانَ، أحسَّتَ أنَّها صارتْ أميرة زمانها. كان هذا الإحساسُ يُراودها كلَّما همّت بتدوين أفكارِها. مدَّت يدها إلى كَنزِها وحاولت أن تكتبَ بداية مشروعِ روايتها الجديدة، لكنها لم تتمكنْ من ذلك هذا الصباح، فأميرُ إلهامها قد تخلَّفَ عن الحضورِ إلى مجلسها كعادته أحيانًا. سألتْ نفسَها قائلة :" هَيه منيرة، من أين تبدئين ؟ ".

وحين لم تجبْها نفسُها، جالتْ ببصرِها فيما حولها، فتاهتْ نظراتُها بين ألوانِ الشَّمس التي أطلَّت من خلف الجبال المُخضرّة الممتدة على طولِ الساحلِ المُقابلِ لها، وبينَ أمواج البحرِ الزاحفة التي كانت تنكسرُ على سلسلة من صخورِ الشاطئِ الملساء، وبينَ أنواعٍ زاهيةٍ من الأزهارِ البرية التي راحتْ تشرئبُ بأعناقها نحوَها حاملةً إليها أريجها الفوّاح.

نسيتْ الأميرةُ أمرَ أميرِها، وهي تقفُ إلى حافة الشُّرفة، بهرها هذا الجمالُ الرائعُ الذي كان يُحيط بها من كلِّ جانبٍ، كان منظرَ الشروق في هذا المكانِ أبدعَ منظرٍ رأته في حياتها في جمالِ ألوانه التي كانت تنعكسُ على أديمِ البحر الذي عشقته منذُ صغرِها، وكانت هذه المَنطقةُ المسماةُ بزيامة منصورية في نظرِها أروعَ مكانٍ خلقه اللهُ في الكون .

رفعتْ بصرَها إلى الأفق، فتراءى لها أميرُها الوسيمُ قادمًا فوق حصان أبيض طائر. وعند وصوله، قفز إلى الشُّرفة وأجلسها إلى جانبه، وهو يتأملُها بافتتانٍ وإعجاب، قالت له بسعادة بالغة: " شكرًا لكَ أيّها الأمير، ها قد جئتَ أخيرًا، انتظرتُكَ طويلًا، لقد اشتقتُ إليكَ كثيرًا".

وتحتَ نظراتِ الأميرِ المُحبّة، راحَ قلمُ الأميرة يرقصُ على الصفحة البيضاء، وهو يكتب على إيقاع العصافيرِ المُغردةِ ودمدمةِ الأمواجِ المتوثبةِ على الشاطئ الكلمات التالية:

" الفصل الأول-أحلام صغيرة ".

ابتسمتْ الأميرةُ للأميرِ بسعادةٍ، وامتلأتْ نفسُها رجاءً وأملًا، فقد عَرِفَتْ مِنَ أين تبدأ الرِّواية .

الفصـل الأول

" أحـلامٌ صغيــرةٌ "

العصافيرُ تبدعُ أعذبَ سيمفونياتها فرحاً بقدومِ الرّبيع ..

و النهارُ يشرقُ أنوارًا وهو يداعبُ أولى لمساتِ أشعةِ الشمس ..

وكأزهارِ الرَّبيعِ التي تنمو بعدَ شـــتاءٍ طويل، يتبرعمُ الحُبُّ في القلوبِ المتلهفةِ إلى قطراتِ مطر ..إلى قطراتِ حنان ..

من بين الحروف والكلمات ودروس الطِّبِ وقهقهـات الطلبـة، انبثقت شُـــعلةٌ أذابتْ الجليدَ في داخلي وزرعتْ مكانه ورودًا حمراءَ وأحلاماً دافئة ..

من بين مقاعد مدرجاتِ معهد الطِّبِ، سطع نورُ أضاء سماءَ حياتي شباباً وإشراقًا وأ ملا، وامتدتْ أناملُ سـحرّيةٌ تخطُّ على مسرـح الحياةِ حكايةً غيرَ عادية، لكنها في نظر الآخرين قد تكون جد عادية ..

م ن بين أحضانِ الواقع، بزغَ خيالٌ جامحٌ هزَّني بشدَّة وللمني ثم بعثرني تحتَ ضرباتِ رياحٍ خريفية.

كـانـت فتـاةً لا تُشـــبـه الأخريـات في رقتهـا...كـانـت بلونِ القمحِ والحب...كانت ليلى وكنتُ عاشقُها المجنون ..

أحببتُ شعرَها المُسترسلَ كالليل على كتفيها ...

أحببتُ زرقةَ البحرِ في عينيها وزقزقةَ البلابلِ في كلماتها...

أحببتُ مدينةً سكنتها التي سحرتني بشوارعها الواسعة وسكنتني حتى النُخاع بمجرد تجولي بين خ لاياها وداخل شراييها، وارتوائي من عين الفوارة، ذلك المَعْلّم التاريخي الذي يشـــبه قطعةً أثرية رومانية ثمينة، والذي لم يقهره الزمنُ منذُ عهد الاستعمارِ الفرنسي، وكأنَّ آلهةَ الجمال الأسطوريةِ ظلت تحرسُه ليبقى جوهرةً تَتلألأ عبرَ التاريخ ...

جذورٌ عشقي لمدينة سطيف راحتْ تتشعبُ في داخلي كلَّ يومٍ بسرعة قيا سية وأنا أحاصرُ بنظراتي الحالمة والعا شقة زميلتي في الف صل سندس. خلالَ ســويعات الدراســة كنت أرمقُها من حين لآخر بنظرات مســتفزة علَّها تلتفتُ نحوي وتحتضـنني بينَ أ جفانها، وخلالَ أوقات الاسـتراحة كنتُ أقتربُ من أماكنِ تواجدها لأشعرها بوجودي، إلا أنها لم تكنْ تُعير تو سلاتي الصامتةَ أدنى اهتمام، رغمَ هذا صار لكلِّ شيءٍ يتعلقُ بها مكانٌ واسعٌ في ذاكرتي وأحلامي...

كانت بالنســبة لي هي الأمل، كلُّ الأمل...هي الجمال كل الجمالِ...هي الحياةُ، كلُّ الحياة...

كانت الدَّاءَ والدواءَ...

كانت هديةَ السَّماء، قطرات غيثٍ بعد سنواتٍ عِجاف...

وكانت البداية، لكنَّها لم تكنْ كلَّ الحكايةِ...

في يوم لم يكنْ ككلِّ الأيَّامِ، وبعد شهورٍ من الألمِ والكبت والحنينِ، قررتُ أنْ أُغيِّرَ ســلاحي... قررتُ أنْ أخنقَ صــمتي وأبوحَ لها بسرِّ قلبي. كانت جالســةً على كرسي حجري وحيدةً وعيناها تتأملان صــفحةَ الســماء بإعجابٍ وهدوء.اقتربتُ منها ببطءٍ. بادرتُها بالتحيةِ قائلا والخجلُ يُغيِّرُ لونَ وجهي:

- سندس ! صباح الخير.

رفعتْ رأسَها بخفةٍ ورمقتني بنظرةٍ متعجبةٍ ثُمَّ ردَّتْ التحية ردًا جميلا:

- صباح النور.

استجمعتُ قواي وأخفيتُ خجلي وارتباكي خلفَ ابتسامةٍ حائرةٍ وقلتُ بجرأةٍ لم أعهدها من قبلُ:

-أريدُ أن أحدثكِ في أمرٍ هام.

سألتْ بفضولٍ:

- وما هو؟

-أتسمحين بالجلوس؟

- تفضَّل.

جلستُ إلى جانبِها، أحسستُ بقوة مغناطيسية تجذبُني لألتصقَ بها، وقلتُ بـشاعرية تفجّرتْ فجأةً من أعماق الـَشوَقِ المسجونِ في زنزانة قلبي منذُ سنواتٍ وعيناي لا تفارقان وجهَها الملائكي:

- حينَ رأيتُك أولَ مرّة شعرتُ بإحساسٍ غريبٍ تجاهك، حاولتُ مراراً تجاهله دونَ جدوىَ، كلما ابتعدتُ عنه ووصلتُ إلى شاطئ النسيانِ لمحتُك طيفاً جميلًا قادمًا نحوي على أمواجٍ زاحفةٍ من الحنين، فقررتُ أن أخبرَكِ عمَّا يجولُ في أعماقي...

قاطعتني مبتسمةً، وهى تقولُ بجرأةٍ لم أتوقعها:

- باختصارٍ، أنتَ تودُ أن تخبرني عن إعجابكَ بي.

- نعم...

غلفتني بنظرةٍ صامتةٍ دون أنْ تنبسَ بأيِّ كلمة. أحسستُ بارتباكٍ قوتُه سبعُ درجاتٍ على سلم ريختر يُزلزلُ ثقتي بنفسي- ويجعلها حطاماً، ومع هذا واصلتُ حديثَي بإصرار:

- فكِّري في الأمر.

أشرقَ وجهُها عن ابتسامةٍ عريضةٍ وقالتْ:

- سأفكرَ. إلى اللقاء.

نهضتْ وابتعدتْ عنِّي وكل جسدي يناديها، وكل أحلامي تتطايرَ كفراشات ملوَّنة حولَها، وكلُّ نظراتي الملتهبة حباً ويأساً وأملًا تُطاردها، وغادرتْ المكانَ تَاركةً خَلفَها إنساناً ينتظر ردَّها، ينتظر حبّها وحنانَها، ينتظر مستقبلًا مشتركاً معها...

وطال انتظاري، وانتظارُ العُشَّاقِ نزيفٌ بطيءٌ يترَقَّبُ قطرةَ حبٍ تُنعشُه...

اختلطتْ أفكاري، وأفكارُ المحبين خرافاتٌ ومتاهاتٌ لا يفهمُها المنطقُ ولا العلم...

وازدادتْ شُعلةُ حُبِي اشتعالا مفجرةً براكينَ الشَّوقِ في داخلي...

وتألمتْ الرّوح لبعدها عن الرّوح والجسد لبعده عن الجسد.

ذاتَ مساء وقفتُ أمامَ بابِ المعهد ورحتُ أرقبُ قدومَها، لمحتُ أميرتي آتيةً من بعيد، خَطواتُها السريعةُ كانتَ تُزيد من ضربات قلبي المتيّم. اقتربتْ مني وابتسمتْ، فأشرقَ وجهُها جمالا، وأشرقَ قلبي أملا، حيّتني قائلةً:

- مساء الخير.

- مساء سعيد.

سرتُ إلى جانبها وأنا لا أكادُ أصدق، بادرتُها بالحديث قائلًا:

- هل فكَّرتِ في الأمر؟

- نعم.

- ما رأيك ؟

نظرتْ إليّ بتمعنٍ وسألتني:

- وما نهايةُ هذا الحبِّ ؟

- طبعا، كنهاية أيِّ حُبَ شريف.

- أتعني الزواجَ ؟

- وهل ظننتِ غير ذلك ؟

- لا أعرفُ... لكن، لازلنا طالبين...

قاطعتُها بسعادة:

- هذا يعني أنكِ تُحسين نحوي ببعضِ المودَّةِ.

قالت ببساطة:

- ما رأيكَ في أن نصبحَ صديقين؟ الأيَّامُ وحدَها كفيلةٌ بتقرير مشاعرِنا.

قلتُ بسعادة:

- موافق جدا.

لفتني بابتسامة حالمة تُقطّر سحراً وصمتتْ .

وصـارت ابتسـامتُها تلك حُلماً ظلَّ يطاردني مدةً طويلة في كلِّ مكان، في الشارع، في البيت، في المعهد، في الواقع، في الأحلام ..

وقررتْ الأيّام...

وكان قرارُها بدايةَ قصةِ حُبٍّ...

كان الحبّ موعدنا ومركبنا إلى عالم سعيد تنيره أشعة الشمس ويجدده ضياء القمر،وكانت سندس نجمتي المتلألئة، كانت أميرتي، وكانت البداية...

كنا نلتقي أسفلَ شجرة صنوبر ضخمة منتصبةً بشموخٍ أمامَ أحد مدرجات جامعة فرحات عباس لنتجاذبَ أطرافَ الحُبِّ كعصـفورين صـغيرينَ مقبلين على الحياة يخططان لبناء عُشِ سعيد...

سـافرنا معاً في رحلات كان اتحاد الطلبة يُنظمها من حينٍ لآخر. كان الحبّ يُرافقنا في كلِّ جولةٍ وهمسةٍ ونظرة...

تنزهنا عنـدَ سَفـحِ يما قوراية فـي بجايـة.

وقفنـا عـلى الجسورِ العجيبةِ في قسنطينة..

زرنا بوابة الصحراء بسكـرة..

تزحلقنـا على مرتفعـاتِ جرجرة الخلَّابـة.

رفرفتْ حولَنا آلهةُ الحُبِّ في تيمقـاد الأثريـة.

وكانت آخرُ رحلة جمعتنا والتي قادتنا إلى "مدينة الله هيبون" مميزةً فعلًا لأنَّها ذكَّرتني بطفولَتي، عند وصولنا إلى قمة لالا بونة رأينا سانت أوغسطين يتضرعُ إلى الله بعينين خاشعتين، وهو يمدُّ يديه نحوَ السّماء داعياً البشرية إلى التسامح والتحلّي بالإنسانية، كانت العصافيرُ ترافق دعواتَه الصادقة والصامتة برقصاتها الجوية، وهى تعزفُ سيمفونيةَ الخلودِ، وكانت أشجارُ النَّخيلِ المجاورةِ له تشاركُه ابتهالاته ودعواته.

ابتعدنا عن تمثال سانت أوغسطين، وعند مدخلِ ساحة الكنيسة التي لا تزال منذُ عصورٍ رمزاً تاريخيا يتحدى الموتَ والفناء ، استقبلنا أحدُ القساوسة قائلًا بفرنسية ممزوجة بلكنة إيطالية:

- مرحبًا تفضَّلوا، سندخلُ الكنيسةَ من البابِ الجانبي.

في الداخلِ، راحَ القس يُلقي نبذةً وجيزة عن حياة القديس الذي ولد عام 394 م بتاغست. - مدينة سوق أهراس حاليا - وبَعد أن أنَهى مداخلتَه الموجزة انتزعتُ طرفَ الحُوارِ قائلًا:

- كان القديسُ نوراً سطعَ منذُ عصور من أعماقِ الظلمات ليمتدَ عبرَ مساحات شاسعة من الفكرِ الإنساني، و كان أولَ مسيحي دافعَ عن العذراء مريمَ عليها السلام حيثُ لم يعتبرها امرأةً سيئة كما وصفها قومُها.

نظر القس نحوي بفضولٍ وقال:

- إذن أنتَ من المهتمين بأفكارِ القديسِ .

أجبتُه بفخرٍ:

- أنا أعتزُ بإنسانيته وبحبه لوطنِه الجزائر...

قاطعني القس قائلًا:

- العظماءُ يا ولدي ملكٌ للبشريةِ جمعاء. يبدو أنك مطلعٌ على حياة القديسِ .. هل لديكَ فكرةً عنَ المسيحية ؟

لَكَزَ أحدُ الطلاب ذراعي، التفتُ نحوَه فسمعتُ كلامًا صامتًا منبعثًا من قسماتِ وجهِه يدعوني إلى عدم الاسترسالِ مع القس، ولمحتُ سندس تتأملُ قطعةً عظمية بساعد تمثال القديسِ المُسجَى داخلَ تابوتٍ زجاجي مُغلق، إلا أنِّي أجبتُ القس قائلا بكلِّ ثقة:

- قرأتُ عدة مراتِ الإنجيلَ.

- وإذن؟

قلتُ مجيبًا بكلِّ وضوحٍ على أسئلةٍ عديدةٍ مُستترة خلفَ نظراته الفضولية:

- المسيحيةُ دينٌ سماوي كاليهودية والإسلامِ، إلَّا أنِّي لا أعتقدُ بأنَّ المسيحَ عيسى عليه السلام هو ابن الله .. هل تعرفُ شيئًا عن الإسلام ؟

تهللتْ أساريرَه عن ابتسامةٍ مشرقةٍ وأجابني :

- طبعاً، ألا تراني أقطنُ بلدًا إسلاميا ؟

- هل قرأتَ القرآنَ ؟

- بما أنِّي لا أتقنُ اللغةَ العربيةَ جيدًا فقد قرأتُ النسخةَ المُترجمة إلى الفرنسية.

- وإذن ؟

قطبَ جبينَه باهتمامٍ، وقال وهو يتفحصني بنظراتٍ ثاقبة:

- لكم دينُكم و لي ديني، هذا ما جاء في قرآنكم، أليس كذلك ؟

ابتسمتُ وقلتُ :

- جيد، أنتَ تستشهدُ بآيةٍ قرآنية.

نظر إلي بحيرةٍ مُستترةٍ وراءَ بقايا ابتسامة وقال :

- أنا مثلُكم تمامًا أيّها المسلمون، أؤمن بالله خالقِ السماوات والأرض.

لكنه غيّر موضوعَ الحوار فجأةً وهو يخاطبُ سندس التي ما فتئتْ تنظرَ إلى قطعة العظمِ الملتصقةِ بساعد تمثال القديس قائلًا:

- أظنك تتساءلين إن كان العظمُ حقيقيًا أم لا.

انتبهتْ سندس إلى أن كلام القسِ كان موجهًا إليها، فأجابته قائلة، وهي تستديرُ نحونا:

- هذا بالضبطِ ما كنتُ أفكرُ فيه.

- إنَّه حقيقي. بعد وفاة القديس، نُقلَ نعشُـــه إلى ميلانو حيث دُفنَ فيها وأصـــبح قبره حاليا قبلةً للمســيحيين من مختلف أقطارِ الأرض، لكن فيما بعد تم اسـتعادةُ هذا الجزء من الرُفَّات عرفانًا بأنَّ هذه الأرضَ الطيبةَ التي وُلِدَ فيها أوغسطين والتي أحبها هَى الأحقُّ باحتواء رُفَّاته ميتا.

لم يبقَ في الداخل ســـوى القس وســـندس وطالب آخر كان يُتابع النقاشَ في صمتٍ وأنا طبعا، أما بقية الطلبةِ فقد فضَّلوا التمتعَ بأشعة الشَّمسِ في الخارجِ .

راح القس يُعرِّفُنا على التماثيل الموجودة في القاعة، شـعرتُ كأنَّها كانت تراقبنا ونحن نتحدث، هناك إلى الأمام انتصـبتْ السـيدةُ العذراء، وإلى اليمين كان تمثال السـيد المسـيح غارقًا في الدَّمِ يتلوى ألماً على طاولة صـغيرة فداءَ لآلام

البشرـ وتكفيراً لذنوبهم، وقبلَ مغادرتنا أوقفني القسُ، ضـغط على يدي وقال، وهو يبتسمٌ بسخاء:

- إلى اللقاء..أتمنى أن أراكَ في القريب؛ إنكَ فعلا شـــابٌ مميزٌ. حدسي يقول أنكَ ستصبحُ رجلًا عظيما، اعتنِ بها جيدا.

قلتُ وعلامات التعجبِ تغزو قسماتِ وجهي :

- لمْ أفهمْ قصدكَ .

نظر نحو سندس وقال من جديد، وهو يبتسم ابتسامةً عريضةً :

- إلى اللقاء.

لقد أحسّ القسُ بوجود مشاعرَ متبادلةٍ بيني وبين سندس دون شك من نظراتنا، فنظراتُ المحبين رسـائلُ مفتوحة، وكلمات مسـموعة واعترافات سـهلة ومتيسرة الفهم.

قلتُ دونَ تعليقٍ :

- إلى اللقاء يا أخي .

- لماذا لا تدعوني بأبي؟

ابتسمتُ وأجبتُه قائلا:

- لأنـكَ فعلا أخي. أخي جينيـا من أبي آدم وأمي حواء، وأخي في الإنسانية " كلكم لآدم وآدم من تراب".

- وفي حب الله.

قلـت:

- في حب الله الواحد الأحد.

ابتعدنا عن ساحة الكنيسة، وجدنا باقي الطلبة يمرحون بين أشجارِ الزيتون، وهم يأخذون صوراً تذكارية، وما هى إلا دقائق وجيزة حتى راحتْ الحافلةُ التي كانت تُقلنا تشرخُ شرنقةَ الهدوء، وهى تشقُّ طريقها بين الأشجار الممتدة على حافتي الطريقِ الملتوية، نازلة من قمة لالا بونة لتواصلَ رحلتها عبرَ شوارع عنابة وأزقتها. كانت فعلا رحلة مُمَيّزة ، أحيت زيارتنا لكنيسة القديس أوغسطين فترة خصبة مضت من طفولتي، وحملتني على أجنحة الذاكرة إلى الماضي وحطتْ بي في الطريق المُؤدي إلى مدرسة نيبوشة الياس التي بدأتُ فيها دراستي، كنتُ أمرّ بالكْنيسيّة التي كانتْ تنتصبُ وسطَ مدينة جيجل، فأدخلُ ساحتَها في كلِّ صبَاحَ دراسي، وأجلسُ على مقاعدها الحجرية، وأشرعُ في التقاط حبات البلح الصغيرة التي كانت تتساقطُ من نخل قصيرِ كان يُزيِّنُ مدخلَ الساحة، وأخفيها داخلَ جيب محفظتي، ثم أتركُ المكان الذي كان يسحرني بجماله وهدوئه وكثرة مُرتاديه من العصافير المغردة ، وأسرعُ نحوَ المدرسة.

وتذكرتُ ذلك اليومَ الذي ضبطني فيه أحد الكهنة أجمع حبّات البلح، فحينما كنت منهمكًا في هوايتي الصباحية المفضلة، أحسستُ بيد توضع على رأسي ، انتبهتُ مذعوراً ورفعتُ عينى إلى أعلى، فرأيتُ رجلًا طويلَ القامة وسيم القسمات، أشقر الشَّعرِ،مرتديا ثوباً طويلا ينظرُ إلىّ ببشاشة، وما إن أحسست بنوع من الحنان يمتطي أشعةَ ابتسامته الوديعة ليتغلغلَ إلى أعماقي حتى هدأ روعي، فأعماقُ الأطفالِ عاليةُ الشفافيةِ تقرأ تعابيرَ الوجهِ ببساطةٍ، وتردُّ عليها بصراحةٍ كبيرة.

سألني بفضول:

- هل تفهم الفرنسية ؟

أجبته بثقة:

- نعم، بدأت دراسة هذه اللغةِ منذُ ثلاث سنوات.

وتوترتْ أعصابي حين سألني عن سبب زِياراتي الصباحية لساحة الكنيسة، لكنه أدركَ مشاعري، فسارعَ إلى القول وهو يربتُ على كتفي :

- حسنًا، سأعاونكَ على جمع حبّاتِ البلح.

رحنا نجمعُ الحبّات الصغيرة. كان رجلا عظيماً وطفلا صغيرا في آنٍ واحد. بعد أن أهداني وردةً صغيرةً قطفها من إحدى شجيرات الوردِ التي كانت تُعطر الساحة، ودعني وهو يقول:

- أسرعْ إلى المدرسة كي لا تتأخر، ولا تبخلْ بزياراتك لنا، إنكَ تذكرني بابن أختي الذي يعيش حاليا في نابولي بإيطاليا، لقد بدأتُ أحبكَ أيّها الصغيرُ.

اعتدتُ أن أرى الكاهنَ، لقد أحببتُه بدوري، كان يُسرع نحوي عندما كنتُ أقترب من الكنيسة ليقبلني بعطفٍ كبير، أحيانًا كان يحدثني عن طفولته السعيدة التي قضاها في نابولي مسقطِ رأسه، وعن عائلته التي اشتاقَ إليها كثيراً، عن الرسالة السَّماويةِ التي جاء من أجلها إلى الجزائر، وعن المسيح الذي بعثه الله داعيا إلى السلام والمحبة، وكنتُ أحدثه عن عالمي الصغير، وعن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعن مدرستي وعن عائلتي...

لكن صديقي الكبير اختفى فجأةً، مضى شهرٌ طويل على غيابه، ولم أتجرأ على السؤال عنه، أحسستُ بالحزن لفقدانه، أحسستُ بالشوق إلى ابتساماته الهادئة، وإلى أزهاره وحكاياته، فمن سيهديني ورودًا في كلِّ صباح ربيعي وأنا في طريقي إلى المدرسة ؟

ومن سيجمعُ معي حبّات البلح الصغيرة ؟

ومن سـيكلمني عن منطقة أخرى حية من العالم كانت تُثير خيالي، عن نابولي وعن روما ؟

وعندما أخبرني عاملُ نظافة اعتدتُ رؤيته صباحا، وهو ينظّف الشارعَ المحادي للكنيسة أن صديقي والذي كان أيضا صديقًا له قد انتقل للعلاج إلى فرنسا؛ لأنه كان يُعاني من مرضٍ عضال، أحسستُ بقبضة محكمة من الألم تضغط على قلبي الصغير، ورفعتُ إلى السماء وجهًا مُبللا بالدموع، ثم قلت مبتهلًا:

- يا ربَ ، ارحمْ صديقي، لقد كان طيبًا معي .

وبكيت، فعلا بكيت بحرقة...

وعاتبتْ رُوحِي روحَه البعيدة؛ لأنَّه لم يودعني...

وبينما أنا على تلك الحال، إذ بي أحس بدقات قلبي تتسارعُ داخلَ صدري. لم يكن ذلك حزنًا على غياب صديقي، لكن لأمر آخر خطرَ في ذهني، فقررتُ أن أبحث عن الراحة الروحية عند إمامِ المسجد المقابل لمدرستي، أسرعتُ بين جموع المُصلين الذين كانوا قد أنهوا صلاة العصر، وتفرقوا زرافات زرافات في الشارع، وعندما رأيتُ الإمام واقفا يُحدِّثُ شخصين كانا برفقته، بادرتهم بالتحية قائلًا:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

قلتُ بحياء:

- أريدُ أن أحدثَكَ في أمرٍ هام يا عمي الشيخ.

ابتسم وهو يسألني بفضول:

- وما هو يا ولدي؟

وعندما لمح التردد ينطق مع نظراتي، ودَّعَ مرافقيه، وأدخلني إلى المسجد، وطلب مني الجلوس إلى جانبه، ثم سألني:

- ماذا هناك؟ هل من مشكلة في بيتكم؟

لم أجبه بل سألته:

- هل أخطأتُ يا عمي الشيخ؟

قال يسألني بحنان:

- وفيم أخطأتَ يا بني؟

- هل يمكن أن نصبح أصدقاء لأناسٍ لا يدينون بديننا؟

قطب جبينه، وراح يتفحصني باهتمام، ثم قال مجيبًا:

- ولم لا؟ لكن بشرطٍ واحد وهو ألا تؤثر هذه الصداقة على معتقداتنا وديننا وأخلاقنا ومبادئنا وحرية وكرامة وطننا، قال الله تعالى: " لكم دينكم ولي دين" صدق الله العظيم. فنحن يا ولدي جميعًا أبناء أب واحد وأم واحدة، ولو لم يفرقْ الشيطان بيننا لكنَّا جميعًا إخوةً متحابين.

بعدها راح الإمامُ يقصّ علىّ قصة والدينا آدم وحواء من مولدهما إلى أن أغواهما الشيطانُ وأزلهما عمّ كانا فيه؛ ليخرجهما الله تعالى من جنة الخلد إلى عالم مليء بالأحزان والحروب.

صمتْ برهةً، ثم سألني باهتمام:

- هيا قُصْ علىّ قصتك.

بعد أن حكيت له حكايتي مع الكاهن، نظر نحوي بعطفٍ وقال:

-أنت يا ولدي ما تزال صـــغيراً، لا يمكنك التمييز جيدًا بين الطيب والخبيث، ولا بين الجيد والرديء، ولذا أنصـــحكَ بالاجتهاد في الدراســـة حتى تتعلم من العلم ما يجعلكَ أكثرَ فهمًا للحياة، وحين تكبر يا صـــغيري، اســـتفت قلبَكَ في كل الأمور التي تصادفك، فإن شعرتَ به ينقبض ليزعج ضميرك، فتأكدْ أنَّك على خطأ وحاول تصـــحيح خطئك. وإن أحســـســـت بالراحة تســـري بين جوانبك، فاعلمْ أنَّك على صواب.

وبعد أن طلب مني الحضورَ بانتظامٍ إلى المسجد، ربّتَ على كتفي وقال:

- عليك الآنَ بالعودة إلى المنزلِ فقد تأخَّر الوقتُ.

كانت أيامًا لا تنسى...

كم آلمني قيامُ السلطاتُ المحلية بتهديم " الكنيسيةّ" دون أن يقام على أرضيتها التي بقيت شاغرةً لعدة سنوات أي مشروعٍ مفيد للمنطقة. أعتقدُ أنَّه كانَ من الأجدر لو حُولت إلى مكتبة أو إلى غرض آخر يعود بالنفع على ســـكانِ المدينة، أو تُركت على حالها خدمةً للســـياحة بدلا من الحكم عليها بالموتِ والفناء.

أعادتني كلمات سندس الهادئة إلى الواقع:

- ما بكَ يا منير؟ أراكَ ساهمًا ، هل أثَّر فيكَ سانت أوغسطين إلى الحد الذي أنساكَ وجودي؟

التفتُ إليها وقلت مازحا:

- هل تغارين؟

- لا !كيف أغارُ من الأموات ؟

ابتســمتُ وأنا أتأملها بافتتانٍ، وكلمات القس وهى تنصــحني بالاهتمام بها ترن في أذني مزاحمةً صــوت الحافلة التي راحت تلتهمُ الطرقاتِ باتجاه العودة.

*****

وتســيرِ أرقامٌ الأيّام إلى ما لا نهاية...وربما إلى نهاية... لســتُ أدري أي الفكرتين صحيحًا وإن كنت أعتقد أن الأولى أصح، فالحياةُ الدنيا ستنتهي حتماً إلا أنِّي كمسلم أؤمنُ بحياة أخرى بعد الموتِ، لكن لا أدري كيف ستحسبُ أيامَ الحياة الثانية، فالغيبُ من علـم الله وحده.

وهكذا انتهت السنةُ الدراسية السادسة، لم تبقَ سوى سنةٍ واحدة وسيتحقق الحلم. سأصبح طبيباً. سأشتغل بمستشفى محمد الصديق بَن يحي بجيجل. سأطلبُ يد سندس من أبيها، سيوافقُ فورا ، شهادتي ستشفع لي أمامه، لن يعيرَ فقري أي اهتمامٍ ،سأحيا سعيدا برفقتها. بادئ الأمر سنسكن في البيت العائلي ، سأصبرُ قليلا قبل أن أتحصّل على سكن وظيفي...

لكن البيت العائلي ليس إلا شــقة ضــيقة جدا تتكون من ثلاث غرف فقط، وتأوي ستة أفراد وهم أبي وأمي وأختي الأرملة وولديها وأنا طبعا.

كنتُ أتساءلُ مرارًا وبقلق شديد إن كانتْ سندس سترضى بالسكن معنا، وهى البنت المدللة ووحيدة أبويها وتســكنُ فيلا بطابقين وبحديقة واســعة... وكنتُ في كلِّ مرة أطمئنُ نفسيــ قائلا: "ولم لا؟ أليســت مغرمةً بي؟ ســتضــحي قليلا، ســأطلبُ منها ألا تبالي لمزاج والدي الســيئ، وســأشرحُ لها أنَّه طيب القلبِ ونقي السرــيرة، كل ما في الأمر أنه يُعاني من اضــطرابات عصــبية ناتجة عن الظروفِ العصــيبة التي قضــاها حينَ كان مجاهدًا في ســبيل الوطن ضــد الغزو الفرنسيــ. وطبعا ســتتفهمُ وضــعيته الصــحية وســتحترمه رغمَ كلِّ شيء...".

خلال العُطَلِ الصيفية، كان منزلنا عادةً ما يشهد ازدحاما شديدًا، فعمتي الساكنة بولاية ميلة اعتادتْ كلَّ صيف قضاء ثلاثين يومًا كاملة في بيتنا هى وزوجها وأولادها الأربعة، وطيلةُ مدةَ مكوثها معنا كانتْ لا تملُّ من تكرار العبارة التالية: " من حُسن الحظ أنَّنا لن نزعجَكم، سنمضي النَّهار بكامله على شاطئ البحر، ولن نعودَ إلا عندَ الغروبِ " . كانت أمي تتقبلُ كلماتها مرغمةً ولكن بصمت، أمي طيبة جدا، فقد علمتها الحياةُ أن تصبحَ صبورةً، وأن تُطفئَ انفعالاتها قبل أن يحس بمشاعرها أحد، أما أختي وولداها فكانوا يتنازلون عن غرفتهم لعمتي وزوجها ويرضون بالمبيت في المطبخ، وأنا أيضا لم تكنْ الأزمة العائلية لتستثنيني، فكنتُ أستقبلُ في غرفتي أولادَها الأربعة، في حين كانت أختي التوأم منيرة تُحجم عن زيارتنا طيلة مدة الأزمة، وتبقى في بيتها الزوجي إلى غاية حدوث الانفراج .

وعند الغروب، يُصبحُ البيتُ خليةَ نحلٍ يُسمع طنينُه من بعيد، حتى الطعام الذي كانت تحضره أمي المسكينة كان ينفذ بسرعةٍ كبيرة دونَ أن أتمكنَ أحيانًا من الحصول على لقمةٍ واحدةٍ من وجبةِ العشاء.

وهربًا من كل ذلك، كنتُ أمضي السهرات الصيفية على شاطئ كتامة رُفقة صديقي مراد الذي شاءتْ الأقدارُ أن أتعرفَ عليه بالحي الجامعي.

وفي إحدى الليالي الصيفية الحارَّة، وحينما التقينا كالعادةِ على الشاطئ لنستمتعَ بالهواءِ المُنعش، فاجأني مراد بحديثٍ أزعجني:

- قد نتخرجُ ونبقى دون عملٍ مدة طويلة قد تصلُ إلى سنوات، وقد تصبح شهاداتنا الجامعية مجرد لوحاتٍ شاحبة دونَ روح على الجدران.

قلتُ له في ضيق:

- اصمتْ، تشاؤمُكَ يُخيفني.

حينها رمقني بنظرة خبيثةٍ وقال:

- سـتجدُ منصـبَ عملٍ، سـتسـاعدك سـندس، إنَّها من عائلةٍ معروفة وغنية جدًا وذات نفوذ، أليس كذَلك ؟

نظرتُ إليه في شرودٍ، لكنِّي تركتُ الصَّمتَ يُطوقني، فاسترسل مراد قائلا:

- والله أنتَ محظوظٌ يا صديقي، كل أصدقائك يحسدونك على صيدكَ الثَّمين. أصدقني القول، هل أعجبتكَ الفتاة فعلا أم أن ثروة والـــدها هي التي فتحتْ شهيتَكَ ؟

أجبتُه بحنقٍ قائلا:

- رجاءَ، لا تتدخلْ فيما لا يعنيك !

قال بعنادٍ أكبر:

- لا تغضـــبْ يا صـــديقي، في كلا الحالتين أنتَ على حق، فكلٌّ شيء في هذا الزمن صار يُقاس بميزان واحد:" ميزان الفقر والغنى ".

قلتُ له في حزن:

- غناها هو الذي يخيفني.

- ولماذا ؟

- لأني فقيرٌ ، لو كنت غنيَا أو من عائلة غنية لاختلف الأمرَ.

- لا تخفْ يا صديقي، أنت وسيمٌ جدا والفتيات يملن إلى الجمال و...

لكني قاطعتُه بصوتٍ خافتٍ حزين :

- لماذا كلَّما حاولتُ نسـيانَ الفوارق الاجتماعية الموجودة بيني وبينها أجدُكَ دوماً تُحييها من جديد ؟

- ببسـاطة لأنِّي أغارُ منكَ، فسـندس يا صـديقي بجمالها ومكانتها الاجتماعية تُثير شهيةَ أيّ رجل.

- أرجوكَ، كفى!...أظنُكَ تتعمدُ إزعاجي...

ليلتها تركتُ صـديقي وحيدًا دون أن آبه لندائه، وعدت إلى "خلية النحل" والخوف يسـيطر على قلبي. هل يمكن للحبَ أن يقفزَ فوق الغنى والفقر دون أن يقع إلى أسـفل؟هل هذا ممكنٌ في زمنٍ صـارت العملةُ عشـيقةَ الجميع، يُضَـحى من أجلها بالأمن وبالحرية والقيم، وتُشَـنُ لأجلها الحروبِ العسـكرية وتُرتَكَبُ عندَ أقدامِها الجرائمَ البشـعةَ ؟ هل يمكن أن يصـمدَ حُبي وحُبّكِ يا سندس ضدَ التيار؟

هذا ما ستقرره الأقدار ..

*****

انتهت العطلة الجامعية الصـيفية السـادسـة، عدتُ إلى سـطيف وقلبي ينبض شو قًا ، حبيبتي هناك بانتظاري ،كلماتها الرقيقة الشاعرية عبرَ الهاتف لا تزال تدغدغُ حواسي...

شـجرةُ الصـنوبر التي رافقتْ حُبّنا راحتْ تهمسُ في أذني تحت نسماتِ خريفية لتُخبرني عن شوقِها إلينا.

انتظرتُ طويلا، لكن نجمتي على خلاف عادتها تأخرتْ ، أحسـسـتُ بالخوف يتسلقني لينقضَ على صدري بأنيابٍ قاسية، فتولَّدتْ في داخلي وساوسٌ كثيرةٌ ، بحثتُ عن أقرب هاتف عمومي، وركبت رقَم هاتفها.

- سـندس .... صـباح الخير ، أنا في انتظارك مثلما اتفقنا، لماذا تأخرت ؟ على أي حالٍ حمدا لله على أنَّكِ بخير، لقد خفتُ عليكِ كثيراً. ظننتُكِ مريضةً .

جاءني صوتُها من الطرف الآخر قائلا:

- سأكون عندكَ في الحال.

- حسنا، سأنتظرك، لا تتأخري.

أحسستُ بالسكون يعودُ إليّ، وحمدتُ اللهَ على سلامتِها.

بعد نصـفِ سـاعةٍ رأيتُها قادمةً، كانت ترتدي طقمًا أسـودَ اللون، صـبغ على جِسـدها المَمشـوقِ رقةً ورشـاقة، هَبّاتٌ خفيفةٌ من الريحِ راحتْ تغازلُ شعرها الليلي الطويل في حياء، وجمالُها الأخاذُ كان على مقاسات العين والقلب ، نهضتُ بخفةٍ وأسرعتُ نحوها.

- صباح الخير، أخيرا أنتِ هنا، لقد اشتقتُ إليكِ، كم أنتِ فاتنة !.

ابتسـمتْ على غير عادتها ببرودة، وردتْ التحيّةَ دونَ أن ترفعَ بصرها نحوي.أسقطـتُ لقاءها البـاردِ في بئر اللامبالاة، وغمرتُـها بنظرةٍ حالمةٍ، وقلتُ بحرارة:

- لم تبقَ إلا سنةٌ واحدة، سنعملُ وسيتحققُ حُلمُنا الكبير.

نظرتْ إلى البحيرة دونَ أنْ تنبسَ بكلمة فشجعتُها على الكلام قائلا:

- هيّا تكلمي، اشتقتُ إلى صوتكِ، لمَ تصمتين؟

قالتْ بتردد:

- أريدُ أن أحدثكَ في أمرٍ مهم.

قلتُ بلهفة:

- ما هو؟

حكَّت ذقنَها ببطءٍ ثم قالتْ متلعثمةً :

- لا يمكنني بعدَ الآنَ مقابلتك.

قلتُ بنبراتٍ يُخالطها التعجب :

- ولماذا، هل سببتُ لك مشاكل؟ و...

قاطعتني قائلةً :

- لا.. لا ليس لهذا السبب.

- ولماذا إذن ؟

- لأنِّي...

تراختْ أعضائي،وارتجفتْ شفتاي، وهمستُ بصوتٍ واهنٍ بعد أن تكهنتُ الإجابة:

- لأنَّك ماذا ؟

- لأنِّي...أقصد...خُطِبتُ منذُ أيَّام.

نزلَ الخبرُ على رأسي كالصاعقة، لم أستوعبْ الأمرَ، أمسكتُها من كتفيها، وقلتُ بلوعة:

- مستحيل !هل أنتِ تمزحين؟ أجيبي رجاءً.

بعد برهةِ صمتٍ رهيبة قالتْ :

- ستجدُ فتاةً أخرى تُحبّها وتُحبّك.

- إذن كنت تتسلين بمشاعري، كم كنتُ غبياً !

- إرادة الله يا منير فوق كل إرادة، لا تحزن، كنتَ دوما تردد على مسامعي قول الله تَعَالَى: " و عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم". ربما يكون في فِراقنا الخيرُ كل الخيرِ، أليس كذلك ؟

بدا لي سؤالها غريبا و أجوفًا وبدون معنى، فلم أجبها، لم أتمكنْ من إجابتها، في لحظات مجنونة شعرتُ بمشاعرَ شاذة وغريبة تدفعني إلى الضحك بدل البكاء و الصمت بدل الصّراخ، في لحظات مجنونة اضطربتْ مشاعري، وانكسر شيءٌ كبيرٌ في داخلي، وتفرقتْ شظاياَ حُبٍ عظيمٍ انغرستْ في قلبي، وماتت الأحلام، كل الأحلام، وصمتت كل العصافير المغردة في أعماقي، وذَبُلَتْ كلُّ الورود الحمراء التي كانت تتغذى من دمي، في لحظة خاطفة أصبحت الحياةُ دونَ طعمٍ أو لونٍ، وبكتْ دموعي رغماً عن كبريائي.

نظرت إليّ وكأنَّها كانت تريدُ أن ترى إجابتي لا أن تسمعها، نظراتُها الجريئة وبقايا الشّمس على وجهها زادتْ من صمتي وألمي، ومع هذا لملمتُ شَتَاتَ نفسي، وقلتُ أعاتبها وأنا أضحكُ بغرابةٍ وحزن :

- لماذا ؟ لماذا يا سندس؟ لماذا؟ .. أنتِ تُريدين ألا أنتظرَ القمرَ بعدَ اليومِ ؟ هذا مستحيل !

حوّلتْ بصرَها عنّي، وهى تقول محاولة إيجاد عذرٍ مناسبٍ لقرارها :

- لا أظنَّكَ تجهل يا منير غلاءَ المعيشة، وانخفاض القدرة الشرائية للمواطن البسيط، الحُبَّ وحده لن يفتح بيتا، ولن يوفرَ ضرورياتِ الحياة...

نظرتُ إليها نظرةً منكسرةً حائرةً تفيض حزنًا ويأسًا، وقاطعتُها قائلا، وأنا أترنمُ بصوتٍ جريحٍ :

- لكن اللهَ يرزقُ مَنْ يشاء، سننهي دراستنا بعد بضعةِ أشهر وسنمارسُ مهنتنا بكل...

- لكن مَنْ يضمن لكَ الحصول على منصب عمل، البَطَالة انتشرتْ بين الشباب، والعمل أصبح عملةً نادرة.

- إنك تخيفينني.

- إنَّها الحقيقة، إن كنتَ تُحبني فعلا فسامحني، اتركني أعيشُ حياتي كما خَطَّها القدرُ.

- بل كما تريدين أنتِ...

- أرجوكَ، لا تلمني...

- كيف تغيرتِ ؟ لماذا ؟ لا أستطيعُ أن أصدق، أنتِ تمزحين أليس كذلك ؟ تريدين قياسَ درجة حبي.. حسنا ! لقد نجحتِ .. أنا أحبك فوقَ كلِّ شيئ، لم يعد للزمانِ والمكانِ حيزٌ في داخلي، أنتِ كل الزمان وكل المكان، أنتِ الحُبّ الكبير الذي يُثيرني ويُزلزلني...

أدخلني حُبّكِ يا سندس عالمَ النسيان والأحلام، وأنساني كلَّ الأحداث،

فأنتِ الحدثُ الأكبرُ في هذه الحياة، أنساني حُبّكِ يا سندس،أن الزمنَ يتغير، وأنَّ الحكايات أيضا تتغير، أنساني حُبّكِ يا سندس حتى الأرقام، فالمئات ترعبني وحتى الآلافَ، وحكايا الموتِ كوابيسٌ تُوقظني ليلا وتُفزعني، من حسن الحظ يا سندس، أنَّ الزمنَ كان قد توقَّف بالنسبة لي عندَ نقطة الصِّفرِ، عندَ نقطةَ العشق، وأنَّ الأرقام لم تعدْ تُرعبني، ولا الحكايات، ولا الكلمات، فقد

توقفت عن الكلام، خوفا من الكلام، خوفًا من أن أصـــبحَ ضـــحية على رقعة شطرنج، تُحركها أيدٌ خفية، خ وفًا من أن أ صير رقما من الأرقام، فلماذا تعيديني إلى الواقع بمثل هذه القسوة ؟ لماذا ؟.. لم أكن أظن أنِّي كنتُ بالنسبة لك مورفينا خارجيا قد تستعيضين عنه بمورفين آخر، ظننت أنَّني دمٌ حار يغذيك بالحياة، لا أستطيعُ أن أتصور أن حبك كان وصار وسيصبح سرابًا وأوهامًا، لا يمكن ذلك يا سندس ،لا يمكن...

- منير! أرجوكَ، لا تُعذبني، أنا لا أحتملُ كل هذه الكلمات.

- ماذا تقولين؟ أعذبكِ ! .. أنا مَنْ يُعذبك ؟ ألا تحسين بألمي؟

- افهمني أرجوكَ، ستظلُ أولُ مَنْ أحببتُ، لن أنساكَ مطلقا...

- خيانةٌ أخرى مُزدوجةُ الأبعاد.

- ماذا تعني؟

- أنتِ تخونين حُبّنا، وتخونين زوجك المستقبلي بحبِّنا .

أسـبلتْ رموشَـها الفاتنة في خجلٍ، ضـممتُ يديها بين يدي المرتعشـتين وقلتُ بيأسٍ :

- أنا و أنتِ واحد، إنِّي أرى الحبَّ في عينيكِ فلا تخونيه.

صمتُ قليلا وأنا ألملمُ شَتَاتَ نفسي وعاتبتها بحنان:

- أيمكنُ لقلبكِ أن ينسى كلَّ هذا الحب، كل هذا الشوق؟

أنت ذكرياتي السعيدة، فلماذا تغتالين كل أحلامي الصغيرة ؟ لماذا تغتالين مشاعري ؟ .. لماذا تغتالين حُبي الكبير ؟

- الأحلامُ شيءٌ والواقع شيءٌ آخر.

- بالحبِّ نصنعُ الأحلامَ، ونُحيلها واقعا مُعاشا...

- إنِّها ليست إلا كلمات.

صمتتْ برهةً ثم أردفتْ قائلة:

- منير، لابد أن نفترقَ، لن أنسى مطلقا أنِّي سعدتُ كثيراً بمعرفتكَ.

- هكذا ببساطة . . تقولينها ببساطة .. تريدين تمزيقَ ما بيننا ببساطة...إنَّكِ تلغين سنينًا من أحلامٍ في لحظات ..

وتعانقَ الحُبّ واليأسُ في مُقلتي المرتعشتين، واستيقظتْ دوامةُ الأنا مزمجرةً في أعماقي، وراح عقلي الباطنُ يستكبرُ خيانَتها، ويُحرِّكُ يدي لأول مرة نحوها، لقد صفعتُها كما كان والدي يصفعُ أمي، لقد اقترفتُ الجرمَ نفسه الذي كنتُ أبغضه، آه ! ماذا فعلتُ ؟!.

وضعتْ يدها على خدِّها، سقطتْ قطراتٌ من الدَّمعِ من عينيها وصاحتْ :

- ما بكَ ؟هل جُننتَ ؟

أمسكتُ بيديها، وقلتُ بندمٍ :

- المعذرة ! لا تلومي اليأسَ يا سندس.

ولم أستطعْ التحكمَ بمشاعري، سقطتْ قطراتٌ من دموعي الحارة على يديه ا، نظرتُ إلى عينيها، كانتا حائرتين بين حُبٍ عظيمٍ وواقع مرير وألم كبير، ضغطتُ على يديها أكثرَ وبيأس كبير، جذبتُ جسدَها وضممتُه إلى جسدي، أحسستُ بالحرارة تَسري داخلَ شراييني، بقيتُ برهةً بين أحضانها كطيرٍ صغيرٍ يبحثُ عن دفء مؤقت في شتاء لا يرحم، لكنَّها سحبتْ جسدَها في حركةٍ مباغتةٍ، وانتصبتْ واقفَة، أمسكتُ بها، وأعدتُها إلى مكانها، وقلتُ باضطرابٍ :

- لن تذهبي هكذا، سندس، سامحيني، ابقي قليلا برفقتي، لن ألمسك بعد الآن، جسدُكِ الجميلُ سيبقى مقدسًا في قلبي كما كان دائما ..

ولم أستطعْ أن أفي بوعدي، جذبتُها إلى صدري مرة ثانية، وأنا أتوسلُ إليها ألا تبتعدَ عنِّي، قبلتُ يأسي على جبينها، تركتُ كبريائي ينزلقُ نحوَ هُوةٍ سحيقة لا قرارَ لها، لكنها ذهبتْ دونَ أن تستدير نحوي، وتركتني وحيدًا، حزينًا، منكسرًا ، رحتُ أناجيها كالمجنون :

- اذهبي من هنا، اذهبي بعيدًا.. بعيدًا ..لا أريدُ أنْ أراكِ.. لا أريد..

ليلتها خاصمني النومُ، وتركني تائهًا، ليلتها انكسر القلبُ، ونزف الحب، ليلتها تمكَّنَ الإحساسُ بالفقرِ واليأسِ من السيطرةِ على كل المواقعِ في داخلي، بعد أ ن بقيت مدةً طويلةً أصدُه عن قلعتي التي شيّدها الحُبّ وزيّنها الأملُ ..

زحف الموجُ الهادرُ نحو الشاطئِ، وهدم قصرَ الرَمالِ، وأغرق شعاعَ الأملِ ..

ليلتها سقطتْ القلعةُ ..

لم يكن مراد قد التحقَ بالحي الجامعي بعد، فلم أجدْ إلا النجومَ لأبثها أحزاني عبرَ النافذة الصغيرةِ لغرفتي ..

لكنَّ النجومَ خاصمتني بدورها، صمتتْ على غير عادتها، وأمعنتْ في الصمت، فأمعنتُ في الشكوى، ورحتُ أقصَّ عليها حكاية قلبي المكلوم .

ولما لم أجدْ مَنْ يُخفف عني أشجاني، لجأتُ إلى البكاءِ كطفلٍ صغير.

وكانت دموعي مالحةً كالبحر، كانت بلونِ الحُزنِ .. بطعمِ الألمِ .

*****

ومرتْ الأيَّامُ ببطءٍ ..

يومًا بعد يومٍ كان حُزني يزداد رويدًا رويدًا، وأنا أراها برفقةِ خطيبِها قادمةً إلى المعهد أو مغادرة ..

غيرتي الصامتة كانت تقتلني بهدوء ..

هناك، أسفل شجرةِ الصنوبرِ الضخمة التي شهدتْ مشاعري كنتُ أجلسُ من حينٍ إلى آخر وحيدًا أرَقبُ قدومَها، لكنَ دونَ أملٍ، لطالما تمنيتُ لو كانت سندس كالشَّمسِ تغيبُ لتظهرَ من جديد، لكنَّها لم تكنْ سوى الزمن الذي يمضي، ولا يعود تاركًا خلفه أحلامًا وأفراحا وأحزانا..

أحيانًا في " لويكاند " كنتُ أتسكعُ في الطرقات، وكنتُ كلَّما وصلتُ إلى الشارع المُؤدي إلى بيتها يخفقُ قلبي بسرعةٍ مجنونة، لكنِّي في كل مرةٍ كنتُ أواصلُ السيرَ إلى أن أتخطاه بعد أن تتمسحَ نظراتُ عيني المعتوهة بجدرانه ونوافذه، وأعاودُ أدراجي ليستقرَ بي المقامُ في غرفتي بالحيِ الجامعي، وفي مكاني المُفَضَّل أجلسُ بالقرب من النافذةِ، وأحاول أن أتصفحَ ما وقعت عليه يدي من كتبٍ كي أنساها.

لكن هيهاتَ !...

صورتُها في كل مكان...

بين أوراقِ الكتبِ، وعلى صفحة السماء...

في كلمات قس كنيسة سانت أوغستان...

على الجدران...

على وجوهِ ممرضاتِ وطبيباتِ المستشفى الجامعي...

وفي الأحلامِ والذكريات...

حاولتُ الفرارَ إلى المُطالعة، لكنَّ الكتبَ صـــارت مملةً، حتى الجمل لم تعد تعني شيئًا باستثناء كلمات شاعرٍ سكنت ذهني دون استئذان.

(تغيّرَ طعمُ الهوى،، تغيّرتْ الأزمنةُ،، وما خُنتُ حُبَّكِ،، آويتُ إلى الكهفِ وحدي،، توسدتُ ذاكرتي، حلمي، وهواي، ونمتُ على نجمةِ ممكنة ،،)

الفصل الثاني

" السقوط الحــر"

نلتُ الشهادة، مرتْ سنينٌ عِجاف، سنابلي الخضراء صارتْ يابسات،

والأحلامُ انطفأت ببطء تحتَ ضربات رياحِ القنوطِ والفراغ، والقلبُ تجمَّد، أمواج اليمِ العظيمِ راحتْ تقذفني يميناً و شمالا.. رحتُ أبحث يوميا عن حبلِ النجاة عبر صــفحات الجرائد، وعندما كنتُ أكتشــفُ إعلانًا عن توظيف الأطباء العاملين، كان قلبيَ يرقصُ أملًا، لكن سَرعانَ ما كانتْ الأحلامُ تتلاشى أمامَ أسماءَ الفائزين، فما كان مني إلا أن توقفت عن تصفّح الجرائد، وقراءة عروض العملَ، وتوقفتُ حتى عن قراءة العناوين الرئيســية، فالأخبارُ المختلفة كانتَ تدفعني إلى مزيد من اليأس .. خمسـون بالمائة من الأطباء الاختصـاصـيين دون عمل منذ عام2003م .. انتحارات، اغتيالات، سرقات واختلاســات ورشــاوي.. فوضى .. فوضى .. فوضى ..

في كل مرة يكادُ رأسي ينفجرُ فيها، كنتُ أهربُ من واقعي الحزين إلى شاطئ كتامة حيثُ كنتُ أجدُ الهدوء والراحةَ على الرمالِ الندية، لا ترافقني إلا زجاجات خمرٍ وأحلامٍ مســتحيلة، ولا تؤانســني إلا أمواجُ بحرٍ مضــطربٍ، وضحكاتُ الآثمين مثلي .

لطالما أحسستُ بالألم والحزن واليأس، لكنِّي كنتُ في كل مرة أحاولُ الهربِ من كلِّ ذلك فأقول لنفسي:" على أيِّ حالٍ لم يعدْ الأمر مهمًا .. سَــأملأ الفراغَ بعلاقة عابرة مع فتاة عابرة.. صرتُ سـكيراً بائسًـا لا يتحكمُ في تصرفاته، صرتُ بلا عقلَ ولا ضـميرٍ .. وهذا كله لا يهم، سـأتمتعُ بكل ما يمنحه الشـارعُ لي من متعٍ، فكلُّ شيءٍ صار متوفراً، حتى الجنس صارَ دونَ ثمنٍ ...سأتمتعُ في حدود

المعقو ل؛ فأنا طبيبٌ وأعلمُ أن الأمراضَ الجنسـية انتشرـت في السـنوات الأخيرة مع انتشارِ الرذيلةِ .. آه ! أظنُّ أنِّي لا أزال أحبَّ الحياةَ ما دمتُ أخشى المَوت...".

وحِين كانت نفسي- الأمّارة بالسـوء تُزِّين لي الخطيئة، كانت "سـورة يو سف" تحـضر م سرعةً إلى ذهني؛ لتط اردَ محاولاتي البائ سة التي كانت تنتهي دومًا قبل أنْ تبدأ تمامًا، فقد أحببتُ قصة النبي يوسف عليه السلام منذُ نعومة أظافري، وأعدتُ قراءَتها، وأنا لم أتجاوز الثامنة من عمري مرات عديدة إلى أنَ حفظتها. وكنتُ كلما قرأتُها، عجبتُ لذلك النبيَ الكريم كيف فضَّل السجنَ على الوقوع في الرذيلة، وكيف و سّع اللهُ تعالى عليه بعد الضيق الذي نسجته أيادي الغيرة وعشق امرأة.

كما أنِّي فقدتُ الإحســاسَ برجولتي أمام أيَّ فتاة؛ لقد ماتتْ غريزتي حين خانتْ ســندس قلبي... لم أســتطعْ أن أجعلَ الحب جنســا فقط... الحبّ بالنسـبة لي أعظمُ م ن أن يكون نزوة جسـد... الحُبّ بقي في عقلي مقدساً رغمِ كلِّ الألم، فهو زهرةٌ جميلةٌ تتفتح وتنشر عبيرها إلى الجسد لتحركه وتجعله أكثرَ حُبّا للحياة، الحب أكبرُ مِن أنْ أخونَه... هكذا كان الحُبَّ وهكذا ســيبقى في قلبي إلى الأبد..

بمرور الوقت راح الفراغُ يتضخمُ بمعدلاتِ متزايدة، طرقتُ كلّض الأبوابِ لكنْ في كل مرة كنتُ أجدَها موصــدةً بإحكام، صرتُ رقمًا من الأرقام بعد أن كنتُ أخافُ الأَرقام، صرتُ واحدًا من الشـباب الذين يموتون كلَّ يومٍ عدة مرات تحت نير البطالة.

آه يا سندس !

أعترفُ أنِّي خُنتك حينَ أحببتُك، لم أعرفْ فعلا معنى الحب، كان علىّ ألا أنســاقَ وراءَ أوهامي، كان علىّ أن أغضَ بصرـي حتى لا أقع، كان علىّ ألا أتركَ صــورتي بين ذكرياتكِ، فقد كنتُ فقيراً،ولا زلتُ فقيرا رغمَ مرورِ الســنين، ماذا

كنتُ سـأقدمُ لكِ غيرَ الحُبِّ؟ ماذا كنتُ سـأنتظرُ منكِ إلا الانتظار؟ فالمعذرة يا سندس، المعذرة...

المعذرة لأنِّي أحببتُكِ يومًا.

****

ذات يومٍ، قررتُ أن أزورَ صديقي مراد لأبثه حزني وأعرف أحواله.
طرقتُ البابَ، أطلَّ وجه صبيةٍ جميل القسمات فسألتُها:

- مراد هنا ؟

- هو في الداخل، أنت منير أليس كذلك ؟ تفضَّل، تفضّل.

حين عرفتُها، قلتُ باسمًا:

- أنتِ زينب الصغيرة، لم أعرفكِ، كبرتِ أيتُّها الشقيةُ .

ضـحكتْ الفتاةُ بسـعادةٍ وهى تتقدمني إلى الداخل، وهناك وجدتُ صديقي جالسًا في غرفة الاستقبالِ وهو يتابع مقابلة ريا ضية على شا شـة التليفزيون، وما أن رآني حتى هـبَّ واقفـا، صافحني بحرارةٍ ودعاني للجلوس، وبحركة رشيقة أغلق زِر التليفزيون وهو يقول :

- منير ، أين أنتَ يا أخي؟ اشتقتُ إليكَ كثيراً.

- أنا هنا، لم أغادرْ المدينةَ مطلقاً.

- عجبا، مع هذا لم نعد نلتقي .

نظر إلىّ بإمعانٍ وسألني :

- هل حصلتَ على منصب عمل؟

- لا ! ليس بعد.

ابتسم بمرارة، وقال بحنق، والغضبُ يلوح من عينيه :

- مزَّقتُ شهادتي الجامعية من شدة الغضبِ والإحباط .

انخرط فجأة في ضحكةٍ هستيرية وقال :

- اشـتغلتُ مدةَ عامين فقط كحمَّال لأكياس الإسـمنتِ بميناء جن جن، جمعتُ مبلغًا مُعتبرًا من المال أضعتُه في دقائقَ معدودةٍ .

قلتُ متعجبا :

- وكيف حدث ذلك ؟

- فكرتُ في المغامرة، فدفعتُ كل ما جمعتُه إلى بحّارٍ يملك مركبًا قديمًا لصـيد السـمك؛ لينقلني رفقة جماعة من الشُّـبان كانوا يحلمون بالهجرة مثلي من أحد شواطئ مدينة وهران إلى أسبانيا، لكنَّ المركبَ غادر قبل أن أصلَ إلى المكانِ المُحَدد .

- يا لسوء حظك يا صديقي!

- بل يا لحسن حظي يا منير ! هبّتْ عاصفةٌ قوية أغرقتْ المركبَ .

سألتُ بفضولٍ :

- هل نجا أحدٌ ؟

ردَّ صديقي بأسى :

- كانوا سبعةَ شُبّانٍ ممَن ضاقتْ بهم البلادُ رغمَ شساعتها، قرروا امتطاءَ الموتِ للوصـول إلى ا لحياةَ، لَكن الأقدارَ أبتْ إلا أن تأخذ خمسـة منهم إلى عالمٍ بعيدٍ عن عالمنا، في حين أُعتُبِرَ شابٌ من المفقودين.

سألتُ بجزعٍ :

- والسابع ؟

- كان سـبّاحا ماهرَا فاسـتطاع أن يقاومَ الموتَ بأعجوبة، ولحسـنِ حظه اكتشفتُه فرقةٌ لحراسة الشواطئ، فأنقذته في لحظة كاد أن يفارقَ فيها الحياةَ .

- قصةٌ حزينة.

- ما أكثرَ القصصَ الحزينةَ !على أيِّ حالٍ "مصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فوائدُ " فمرضُ وا لدي هو الذي حالَ بيني وبين الالتحاقِ بالمغامرين في الوقت المناسب، أما حاليا فأنا أعملُ رفقة أصـــدقاء لي في شراء وبيع مواد البناء. هل تريدُ الانضمامَ إلينا ؟

- وهل يمكنني ذلك ؟

- طبعا، نحن نبحثُ عن شبّان لتوسيع شركتنا.

قلت مازحًا :

- هنيئًا لكَ يا صديقي ! أرى أنكَ أصبحتَ من أصحابِ الشركات.

ابتسم مراد وسألني من جديد:

- لم تجبني على سؤالي، ما رأيكَ في الانضمام إلينا ؟

- طبعا، أنا موافقٌ بدون تردد.

- حسنا، سأخبر أصدقائي بالأمر. مُر بي غدًا إن شاء اللهُ لنتفقَ على كل شيء.

- شكرا يا صديقي، لن أنسى فضلَكَ ما حييتُ .

نظر مراد نحوي بغرابةٍ، لكنه التزمَ الصمتَ .

خرجت إلى الشـــارع هائماً على وجهي، وكالنحلة في قفزها من زهرة إلى أخرى، رحتُ أنتقلُ من شار ع إلى آخر. مررتُ بـ سفينة بابا عروج المنتـ صبة عندَ مفترقِ الطرق الرئيسية للمدينة، فتمنيتُ لو أنها تحملُني إلى العصور السابقة، ربّما لكنتُ قرصـــانًا أو أميرًا أو فارســـا مغوارًا أو حتى مَلكا. ابتســـمتُ لأفكاري الصـــبيانية، وأنا أعرجُ نحوَ الســـاحة المحاذية لمقرِ البلدية، هناك رحتُ أمعن النظرَ إلى تمثال الـصَّياد البرونزي المَفْتُول العـضلات الذي لم يتوقفْ منذُ سنواتٍ عديدة عن خياطةِ شباكِ صيدٍ ممزق، ثم عدتُ أدراجي إلى متحف كتامة.

في الداخل، كانت الحجراتُ فارغةً من الزوار إلا من امرأة وصـــبيين، رحتُ أتأملُ القطعَ الأ ثرية، في حين كان صوتُ الطفلين يدق أذني بوضوح .

قال الصّبيَ سائلًا والدته:

- لماذا تُرتبُ الحِجارةُ يا أمي ؟

أجابتُه بحنانٍ :

- هذان فأ سان حجريتان، كان الإنـسان القديمُ يـستعملُ الحجر لـصنع الأدواتِ التي يحتاجُ إليها.

سألتْ البنتُ بدورها:

- ألم تكنْ هناك مصانعٌ ؟

- لا ...إن...

قاطعها الولد صائحًا، وهو يشير إلى قطع رومانية قديمة :

- هل تلك النقود ذهبية ؟

- لا، إنها برونزية.

- لماذا يضعونها هنا ؟

صـمتت الوالدة برهةً من الزمن، ثم واصـلتْ حديثها لتطير بولديها إلى القرن الرابع قبل الميلاد - تاريخ بناء مدينة جيجل- لتعرج بهما عبر مختلف الحضارات التي تعاقبتْ على المدينة.

استدرتُ نحوَ المرأةِ، وقد أثارني الفضولُ، وسألتُها قائلا:

- هل أنتِ أستاذة في التاريخ ؟

أجابتني وهى تبتسم:

- لا ، أنا ربةُ بيتٍ فقط.

ولما رأتْ علاماتِ التعجبِ والإعجابِ باديةً على وجهي واصلتْ قائلةً :

- كل ما في الأمرِ أنِّي قرأتُ عند دخولي إلى هنا الدليل الذي قدَّمه لي بوابُ المُتْحَفِ .

وانتبهتُ إلى أنَّ الدليلَ كان بيدي أيضـا، ودقَّ قلبي بشـدة واسـتيقظتُ على حقيقة مفزعة، فأنا لم أعدْ أقرأ، ولم أعد أفكر إلا في طريقة الحَصـــول على مصروفِ الجَيب.

أحســـستُ برياحٍ عاتيةٍ من اليأس تقتلعُني من مكاني، وتحملُني بعيدًا عن المتحف خجلًا من امرأة لا أعرفُها لا تزال تقرأ، ولا تزال تستوعب مَا تقرأ.

هربًا من كل ذلك، اتجهتُ إلى المحطة، وركبتُ حافلةَ النقلِ باتجاه زيامة منصـورية؛ لأزورَ أختي منيرة، فقد اشـتقتُ إلى ثرثرتها كثيراً. لطَالما لعبنا معًا ونحن صـغيران، فهي أختي التوأمُ التي أحسّ دومًا بإحسـاسـها ومشـاعرها قبل أن أراها، كانت في الخامســة من العمر حين ســقطتْ من أعلى السّــلم فانكسرتْ قدمُها، أذكرَ جيدًا أنَّني كنتُ ألعب خارجَ البيت فشـعرتُ بألمٍ مُريعٍ في قدمي.

فتحت أختي الباب، ولما رأتني صاحتْ فرحًا، وهى تُعانقني:

- هذا أنتَ، كيف حالكَ ؟ جئتَ في الوقت المناسب.

- هاه .. هل من خبرٍ سعيد ؟

- أريدكَ هنا غدًا، زوجي سـيسـافرُ في رحلةِ عملٍ إلى قسـنطينة، أما أنا فسأمضي الليلةَ القادمة مع حماتي المريضة...

قاطعتُها قائلا:

- وأنا سأتولى مهمةَ الحراسةِ الليلية للشقة.

- كالعادة.

- حسنًا ! سأعودُ في الوقت المناسب، وداعًا !

- انتظرْ، ما بكَ ؟ هل جئتَ لتذهبَ هكذا في لمحِ البصر؟

- أحسستُ بنوعٍ من القلق فقررتُ زيارتكِ .

- إذن ابقَ هنا.

- سأتجولُ قليلا، المنطقةُ رائعةٌ في فصلِ الربيع، وشواطئُها الخلَّابة تغري بزيارتها والتمتع بجمالها.

بعد أيّامٍ قليلة، أصـــبحتُ شريكًا جديدًا في شركة وهمية. كُلفتُ بحملِ حقائب مليئة بالأوراقِ النقدية وشراء موادِ البناء مقابل مبلغٍ ضـــخمٍ عن كل صـــفقةٍ لم أحلمْ بمثله من قبل، ليعيدَ باقيَ الشرَـــكاء بيع هذه الموادِ إلى عملاء آخرين .

راح الشكُّ يدبّ إلى عقلي، غزتني هواجسٌ قاتلة، تساءلتٌ مرارًا من أين يأتون بكل تلك الأموال ؟ ولماذا يســـتعملونني للقيامِ بشرَـــاء مواد البناء؟ هل الأوراق المالية مزورة ؟ ربما... بل حتمًا... لو كانت أصـــلية لأخفوها عن حاســـة بصري خوفًا من السرقة، ولقاموا بالصفقات بأنفسهم.

أخفيتُ شـــكوكي ومخاوفي في زاويةٍ مظلمة من نفسيـــ وأغلقتُ باب التفكيرِ أمام عقلي، المهم أنّي أتلقى بعد كلِّ صـفقة مبلغًا هاما من المال، لم أعدْ أطلبُ مصروفَ الجيب من والدي، يجبُ ألا أفهمَ شيئا، يجب ألا أتكلم، لا بد أن أبقى في نظرهم ساذجًا. أنا بريء لم أزور شيئًا، الذنب ليس ذنبي والإثم يقع عليهم، على أيِّ حالٍ أنا لم أسرق أحدا...

كنت فيما سبق أظنَّ نفسي معدنًا ثمينًا، صرتُ معدنًا رخيصًا جدا.

الصـدأ راحَ يؤكسـدُني ويأكلُني وينخرُني، والمحرماتُ صـارت تنهشـني، والأمرَ أنّي كنتُ أحملُ بيدي قَبســا مَن نور أطفأته بإرادتي وبإصرار الشـــياطين وانسياقي وراءَ أوهامي.

كم تمنيتُ لو استطعتُ أن أقفزَ فوقَ الحُزنِ والألم...

لكن، كان يلزم لذلك قضية كبرى...

كم مرة تمنيتُ لو كسرتُ جدارَ الزمن...

تمنيتُ لو عدتُ قليلا إلى الوراء ربَّما لصرتُ قادرًا على تغيير جزءٍ من قدري...

تمنيتُ لو صرتُ صغيرًا أطيرُ خلفَ الفراشات، وأغرَدُ كالطير، وأشدو، وأمرح، وأنتظر حبّاتِ الزيتون كي تسوَّدَ على الأغصانِ لأرافقَ أمي وأختي منيرة إلى منطقة بني قايد حينَ يحينُ موسمُ الجني .

لكن هذا مستحيل .. فالأقدارُ بيدِ اللهِ، والزمنُ يذهب ولا يعود ..

أمعنتُ في الحزنِ حتى حسبتُ الفجر مستحيلا...

وزادتْ آثامي من أحزاني التي صارتْ أكبر من أن يتسعَ لها قلبي...

وتمنيتُ في قرارِ نفسي أن أهزمَ نفسي الأمَّارة بالسوء وأن أتغيَّر نحو الأفضل، ورحتُ أصيحُ في داخلي مرارا وتكرارا: " تبا للأنا! ... تبا للَشيطان !..."

لكنِّي رحتُ أنزلقُ رويدًا رويدًا نحو الحضيض، وأنا أحسّ أنَّ الله قد ظلمني وحرمني من جميع أحلامي، وكان الشيطان يطنُّ في أذني :

" ليس في الأمرِ خيانةٌ ولا دناءةٌ يا منير ولا سرقةٌ شعبٍ ولا وطنٍ فلا تحزن ".

*****

ذات يومٍ بينما كنتُ أتسكعُ على شاطئ كتامة، لمحتُ فتاة شككتُ في أنِّي أعرفُها متأبطةً ذراعَ شابٍ أشقر، أثارني الفضولُ فاقتربتُ منهما أكثر، سمعتُ الشاب يتكلم بلغة فرنسية ممزوجة بلكنة ألمانية، وتأكدتُ من أنَّ الفتاةَ هي حنين صديقة أختي منيرة وجارتها في السكن، قلتُ في سري: " إذن هكذا أنت يا حنين، تتصنعين البراءةَ والطُهرَ وأنتِ تتجولين في هذا المكانِ المعزولِ كعادتِه في

فصـلِ الربيع ومع شـابٍ أجنبي، حينها نسـيتُ أنِّي أيضًـا كنتُ أتجولُ وأشربُ الخمرَ في نفس المكان، إلا أنَّ فكرةً جهنمية غَزَتْ فكري، لم لا أملأ فراغي باللهو وربط علاقة معها ؟ سـيكون ذلك سـهلا مع فتاة مثلها ألفتْ السـفر إلى خارج البلاد وحدها، ربّما كان ذلك الشـاب واحدًا من الأشـخاص الذين تعرفتْ بهم في الخارج، سأ خبرُها عن حبي لها، و سأعيشُ ق صةَ غرامٍ وهمية؛ لأذ سى م شاكلي، وأدخلُ قليلا من التغيير على حياتي البائسة.

ا ستغلَّ ال شيطانُ نقطةَ ضعفي، ت سللَ عبرَ شقوق نف سي إلى داخلها، وراح يُشجعني موسوسًا: " لم لا تحاول؟ حاول ولا تخفْ فلن تخسرَ شيئًا ".

أجبتُه قائلا:" لكنِّي أحبّ الفضـيلةَ، والصـدق، والوفاء، وأكره الرذيلة، والكذبَ، والغدرَ".

لكنه أصرّ قائلا: "وهل نفعكَ كلُّ ذلك يا صديقي؟ سندس خانتكَ بسبب فقرك، شهادتُكَ الجامعية لم توفرّ لك رزقَكَ، حياتُك تنقضي رويدًا رويدًا دونَ أن تعيشها و تشربَ من ينابيع السعادة التي تتدفقُ في شعابها ".

بدأ الضـعفُ يدبّ إلى نفسيـ وتمكَّن الشـيطانُ من إغوائي، فقررتُ أن أكلمَ حنين، ونفذتُ قراري .

كانت في طريقها إلى السوق عندما مرّتْ أمامي، ناديتُها بصوتٍ رخيمٍ :

- حنين !

استدارتْ إلى الخلف، وما أنْ رأتني حتى ابتسمتْ ببراءةٍ وقالتْ :

- آه ، منير ، كيف حالُ والدكَ ؟

- بخير، وأنتِ كيف حالُك ؟

- حمدًا لله، على أحسنِ ما يرام.

مشيتُ إلى جانبها فلم تعارض، كيف لفتاة مثلها أن تعارض ؟

قالتْ بصوت هادئ:

- أنا في طريقي إلى الســـوق، جدي مريض جدًا، ولا يقوى على القيام بواجباتِ المنزلِ .

ابتسمتُ بخبثٍ، وسألتُها بجرأةٍ ووقاحة لم أعهدها من قبل:

- أريد أن أسألكَ سؤالا.

- ما هو؟

- ألديك خطيبٌ ؟

نظرت نحوي بخجلٍ، خفضتْ بصرَها في حياءٍ وأجابتْ :

- لا !

رمقتُها بنظرةٍ شيطانيةٍ، وقلتُ بهدوء:

- وأنا كذلك أحسّ بالوحدة، أترغبين في أن نصبحَ أصدقاء ؟

اتسعتْ مقلتاها من التعجبِ وسألتني:

- ماذا تعني؟

- أن نلتقي من حينٍ لآخرَ لنتبادلَ أطرافَ الحديث، وليتعرفَ أحدُنا على الآخرِ .

- أين ؟

- في أي مكان تختارينه، ومن الأفضلِ حيثُ الهدوء والراحة على شاطئ كتامة.

توقفتْ برهةً عن السير ثم قالت في حياء:

- لا أستطيعُ رجاءَ ، احترم مشاعري، هذا لا يليقُ مطلقا.

سـألتُها والدهشـة تغزو قسـماتِ وجهي ونفسي- تقولُ لها " يا لك من ممثلةٍ بارعة !":

- ستكون علاقة بريئة.

- منير، أصـدقك القول أنِّي معجبةٌ بأخلاق أختك منيرة وبطيبة عائلتك، وهذا هو السـبب الذي جعلني أردُّ تحيتكَ وأكلمكَ، وبما أنَّكَ تجاوزتَ حدودكَ فلا يسعني إلا أن أقولَ لك وداعًا.

تركتني وذهبتْ بخطواتٍ سريعة.

قلتُ في سري: " لنْ أكلَّ حتى أوقعك في شـباكي أيتُّها المتعجرفة الكاذبة، كلكن كاذبات، تمثلن الطُّهر والبراءة وأنتنّ تُعجزن الشياطين خُبثا ".

ومرتْ الأيَّامُ كئيبةً، وزادتْ مطاردتي لحنين شـدةً ، إلى أن رضـخت أخيراً وقبلتْ لقائي في إحدى " كافتيريات " وسط المدينة.

سألتني وهى تعبثُ بكأسِ العصير بين يديها الناعمتين :

- وما نهاية هذه العلاقة ؟

- ربما الزواج.

- ماذا تعني بربّما ؟

سألتُها بفضول:

- حنين، بم تشعرين نحوي ؟

خفضتْ أهدابَها وقالتْ بصوتٍ حنونٍ و مؤثر:

- إنَّكَ شابٌ طيبٌ، لن أنكرَ أنِّي معجبةٌ بكَ .

- الإعجابُ لا يكفي، هل تحبينني؟

لم تجبني، لكنها نظرت نحوي نظرةً غريبة وصامتة.

قلتُ :أريدُ منكِ جوابا.

- وأنتَ، هل أنتَ جادٌ في مشاعركَ نحوي ؟

قلت باستهتار وبدون مسؤولية:

- طبعًا !

- لكن، أرى في عينيك حزنًا عميقًا، ولا أدري لماذا أشـــعر بأمر غريبٍ يشوبُ مشاعركَ نحوي.

وكانت صـادقة في إحسـاسـها، فصـمتُ وامتطيتُ أجنحةَ الذكريات مسافرًا إلى الماضي.

- منير، ما بكَ ؟ هيه .. إلى أين وصلتَ بأفكاركَ ؟

انتبهتُ من شرودي وقلتُ :

- أوه المعذرة !

نهضتْ من مكانها وهى تقول:

- يجب أن أذهبَ الآنَ، وقتُ صلاة العصر يقترب.

- رجاءً ابقي قليلا برفقتي.

- قلت لك أن وقتَ صلاة العصرِ يقترب، ألا تصلي؟

ابتسمتُ وأنا أقول في سري مستهزئا:" إيـه !، إنِّها تصلي وتقترف الذنوب في نفس الوقت ".

- هل من موعدٍ آخر؟

قالتْ وهى تنصرف:

- رضـــيتُ بلقائكَ لأعرفَ منكَ ما عرفته، إن كنت تريدني فعلا فاطلبني من أهلي، أما أن ألتقي بك مرة أخرى فلن يكونَ ذلك إلا صـدفة، عندَ أختكَ أو عند زيارتي لأهلكَ في الأعيادِ كعادتي في مثل هذه المناسبات، وداعًا.

الوحدة قاتلة، وحنين فتاة تلفُّها الأسرارُ، كلامٌ ها ينم عن اتزانٍ كبير. لن تكونَ صـــيدًا ســـهلا كما توقعتُ، علىّ أن أبحثَ عن ملهاة أخرى لدفع الملل والرتابة.

وا نقطعت علاقتي بها. إلا أن التجربةَ الجديدةَ زرعتْ في داخلي بذورَ إعجابٍ وشكٍ وسيلا من الأسئلة التوَّاقة إلى أجوبة...

*****

ذات مساء كلفتني منيرةُ بحراسة بيتها لأنها ستقضي ليلتها عند حماتها المريضـــة، فما كان مني إلا أن لبيت طلبها. وما إن غادرتْ أختي المنزل حتى أخرجتُ زجاجة النبيذ من مكمنها في الحقيبة وراحتْ تُقاســمني وحدتي وألمي، رشـــفتُ محتواها ببطء وتلذّذ والكثير الكثير من الحزن، وبينما أنا على تلك الحال، إذْ بالبابِ يُطرق. أخفيتُ الزجاجة تحتَ السريـر، ونهضـــتُ وأنا أتمايلُ من شدة السُكر، من فتحة الباب أطلَّ وجهُها جميلًا وشفافًا، سألتني:

- هل منيرة هنا ؟

- تفضلي .

دخلتْ حنين بهوَ الشقةِ، أغلقتُ البابَ خلفَها فصاحتْ بانزعاجٍ ظاهرٍ:

- منيرة ..... أين أنتِ ؟

قلتُ بصوتٍ سكّيرٍ بائسٍ، وقد غابتْ "سورة يوسف" تمامًا عن عقلي تحتَ تأثير الخمرِ :

- نحن هنا وحدنا.

صاحتْ بفزعٍ :

- ماذا ؟؟؟، أنتَ مخمورٌ، يا إلهي، افتح البابَ، اتركني أذهب.

- لا، لن تذهبي، حان الوقتُ كي تعترفي لي بحبكِ يا سندس ، لا تتركيني.

- ماذا ؟؟؟ سندس ؟

جذبتُها فدفعتني بقوة، أفقدني الخمرُ توازني فسقطتُ أرضًا.أسرعتْ حنين نحو البابِ إلا أنِّي تبعتُهَا، أمسكتُ بخمارِها فسقطَ عن رأسها، وتناثر شعرها الأشقر الطويل على كتفيها، قلتُ بانبهار:

- كم أنتِ جميلة!

فتحتْ البابَ بسرعة، وهربتْ مني، أما أنا فبقيتُ أضحكُ وأهذي كالمجنون :

- كلكن جميلات، كلكن كاذبات، خائنات..

استلقيتُ على فراش ا بن أختي، وانخرطتُ في نومٍ عميق، ولم أستيقظ إلا على صوت منيرة، وهى تقول :

- منير، ألا تزال نائمًا ؟ استيقظْ .

فتحت عيني بتثاقل وسألتُها :

- ما الذي جاء بكِ الآنَ ؟ ألم تخبريني بأنك ستقضين الليلةَ مع عائلة زوجك ؟

ضحكتْ بمرحٍ وقالت :

- ما الذي جرى لعقلك ؟ إنها العاشرة صباحا.

نهضتُ بسرعةٍ من مكاني وقلتُ :

- ماذا ؟ العاشرة صباحا، أوه يا إلهي لقد فاتني موعدٌ هام جدا.

اتجهتُ إلى الحمام، وتبعتني أختي في طريقها إلى المطبخ، وفجأةً توقفتْ، وهى تقول بتعجب :

- لِمَنْ هذا الخمار؟ إنَّه يُشبه خمار حنين.

اتسعتْ عيناي من المفاجأة، وأحسستُ بالندم، وأنا أتذكرَ آخر ذنبٍ لي حقا ! إنَّ الخمرَ أمّ الخبائث.

قالتْ منيرة ببراءةٍ :

- المسكينةُ نسيته عندما أرتني تسريحةَ شعرِها أول أمس، لستُ أدري كيف أنِّي لم أنتبه إليه من قبل، ربّما لأنَّني كنتُ مشغولة جدا بكتابة روايتي الجديدة.

ابتسمتُ وأنا أنظرَ إليها بحيرة دون أن أنبسَ بكلمة واحدة، ففهمتْ أختي سرّ ابتسامتي، وأجابتْ صمتي قائلةً :

- طبعا سأحتفظُ بها، لن أرميها كما فعلتُ بروايتي السابقة.

- لكنك رميت روايتك تلك في ســـلة القمامة، أنت مجنونة، تتخلين عن مجهودك ببساطة.

- بل بصـــعوبة. كانت رواية حزينة، كنتُ أبكي كلما قرأتُها ولهذا تخلصـــتُ منها. على أيِّ حالٍ لن أقومَ بمثلِ ذلك الجنونِ مرةً أخرى، أعرفُ أنِّي سـأنجحُ يومًا ما في نشرِ أفكاري، خذْ حمّامًا واتْبعني إلى المطبخ لتناول الفطورِ، بعدها سنواصلُ الحديثَ .

*****

قالتْ أختي وهى تقدم لي فنجانًا من الحليب الساخن :

- حنين أيضًا تهوى الكتابة، فهى شابة تتمتع بعبقرية متفتحة وإحساس مرهف، كتبتْ عدة روايات على أملِ نشرِها يومًا.

- قد تكون أفكارُها بسيطةً .

- نقصُ الإمكانيات يا أخي هو السـبب، حنين فنَّانة في لباســها وكلماتها المهذبة ومسكنها، رواياتُها لوحاتٌ فنيةٌ جميلةٌ كتبتَها بإحساسٍ فيّاض ومشاعرَ جيّاشة وأسلوبٍ بسيطٍ ومُعبر...

قاطعتُ أختي قائلا بأنانية، وكأنِّي أنتقمُ من كل النساء:

- أنت لا تعرفين جانبَها المُظلم، لقد رأيتُها تتسكعُ مع شابٍ أجنبي...

لكن أختي عاجلتني بنبرةٍ لا تخلو من عجب:

- جانبها المظلم !؟

رفعتُ بصري، وأنا أسمعُ جلبةً عندَ البابِ، وعندما أبصرتُ حنين واقفةً إلى جانب حسام بن أختي منيرة، ولمحتُ نظراتَها الشاحبة ،عرفتُ أنَّها سمعت

حديثنا، فلفَّني خجلٌ أحمر، وقررتُ الانصراف. رافقتني أختي إلى الباب مودعةً وقالت :

- حسنا، سأهتمُ بضيفتي.

استمرّتْ أخطائي اشتعالًا حتى كادت أن تحرقني.

وقمتُ بعدة صفقاتٍ جنيتُ من ورائها مالا حرامًا، إلا أنِّي لم أكن أحس بالراحة مطلقا، كان ضميريَ شوكةً في العقلَ تُوجعه، وخنجرا في القلب يُدميه ويُحزنه.

لكنَّ اللهَ خفَّفَ من ألمي ذاتَ صباحٍ حينَ أحسستُ بإنسانيتي من جديد، كنتُ في طريقي إلى أصدقائي حينَ لمحتُ سيارة مسرعة تصدمُ فتاةً صغيرة. دقَّ قلبي بشدة، وأسرعتُ إلى مكان الحادث، وفي لمح البصر تجمهرَ النَّاسُ، ولمحتُ شيخًا يُهرول وهو يصيحُ بحرقةٍ :

- ياسمين، ابنتي، ياسمين، يا حبيبتي !...

قال أحدهم:

- لا تلمسوها إلى غاية وصول سيارة الإسعاف.

ردَّ آخر:

- لكنِّها تنزف، لابد أن تُنقلَ حالا إلى المستشفى.

جلس الشيخُ على ركبتيه وهو ينتحب، حاولَ حملَ الصبيةِ إلا أنِّي أوقفتُه قائلًا:

- انتظرْ، نزيفُها غزيرَ، أنا طبيب، رجاءَ ابتعدْ واتركني أقومُ بالإسعافات الأولية، وليتصل أحدكم بسرعةٍ بالحماية المدنية.

وبسرعة البرقِ سحبتُ حزامَ ياسمين المطاطي، ورحتُ أربطُ قدمها بشدة لوقف النزيف، وما هى إلا لحظات حتى وصـل رجال الشرـطة ورجال الحماية المدنيـة.

خاطبني الشيخ قائلا بقلق، وهو يصعدُ إلى سيارة الإسعاف :

- رجاءَ ! رافقنا يا بني.

في المستشفى، عانقني الشيخُ، وقبّلني والدموع تسقط من عينيه، وهو يتلقى كلمات طبيب الاستعجالات :

- اشـكرِ اللهَ أيّها الشـيخُ على نجاتها، سـتخضـع إلى عملية جراحية مسـتعجلة، نزيفُها كان قويا، ولو لم يُربط سـاقُها كما يجب، ما وصـلتْ إلى هنا على قيد الحياة، لا تنزعج سيكون كلُّ شيء على ما يرام ".

غادرتُ المستشفى وقلبي يتأرجحُ بين السعادة والألم، فرحتُ بإنسانيتي لكني تألمتُ كثيرا لألم ياسمين .

يومها قضيتُ بقية النهار على شاطئ كتامة وأنا أفكر..

إذن هذه هى الحياة، في لحظة خاطفة قد يرمينا القدرُ بعيدًا عنها.

سألتُ البحرَ قائلا:

- أيّها البحرَ العظيمُ، أخبرني كم من الآلامِ طويتَ بينَ أمواجِكَ، وكم من شـــخص أشركَكَ همومَه، ووقفَ على شـــواطئكَ حائرًا أمامَ جبروتكَ، وكم من سكيرٍ بائسٍ رماكَ غيرَ مُبالٍ بقارورات الخمرِ الفارغة وكأنَّكَ كنتَ سببَ مآسيه وآلامه ومتاعبه !. هل يمكنكَ الآنَ رغمَ كل ما رأيتُه و سمعتُه من جحود البشرِ أن تُشـــاركَني ندمي وحزني وتوبتي، وأن تتضـرــعَ معي إلى اللهِ ليغفرَ لي ذنوبي وآثامي؟

لكنَّ البحرَ لم يجبني، وتدخل الشيطانُ بإصراره المعهود ليردَّ على سؤالي :

- لمَ تندمُ ؟ ولمَ تحزنُ يا صديقي؟ لماذا تُتعبُ نفسَكَ بكلِّ هذه المشاعرِ والأفكار؟ عِشْ سعيدًا، ولا تندمْ على أيِّ عملٍ شنيعٍ قمتَ بفعله من قبل، فكلُّ شيءٍ سيصبحُ يومًا ما هباءً من غيرِ قيمة، وسيختفي في أعماق الزمنِ، وسيصيرُ نسياً منسيا.

لكن الطبيعةَ بكل خفاياها وحقائقها انتفضتْ صارخةً في وجهي، وقد تخشَّعتْ من خشيةِ الله:

- بل يجبُ أن تندمَ وأن تستغفرَ ربَّكَ كي يغفرَ لكَ، وإن لم تندم الآنَ فستصبحُ سيئاتُك جبلًا ضخمًا لا يمكن هدمه فيما بعد. لا تستمعْ لوساوسِ الشيطانِ، فكلُّ شيءٍ قدَّره اللهُ بمقدار، فمَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يرَه ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً يرَه ، فاللهُ لا يأخذُ بذنب الإنسانِ الذيَ أخطأ عن جهالة، لكنه سيكون شديدًا على الإنسانِ المُتعلِّمِ الذي رغمَ ما آتاه اللهُ من فضلِه وعلمه يستمر في الخطأ، ويُصر عليه.

خفضتُ رأسي إلى الأسفلِ خجلًا من الله ، ورحتُ أنتحبُ كطفلٍ صغيرٍ افتقد حليبَ أمه، تمنيتُ أن أصبحَ إنسانًا آخر، وطلبت من الله العون، وراحتْ دموعي تتساقطُ على رمال الشاطئ..

أهي لحظةُ قوة ؟ أم لحظةُ ضعفٍ وخوفٍ من الموتِ ؟ أم بريقُ توبةٍ ؟

الفصـل الثالـث

" الكنــز "

قالتْ أمي بأسى، وهى ترمقُنِي بنظراتِ ثاقبة :

- ماذا أصابكَ يا بني؟ أين ذلك النورُ الذي كان ينبعث كالألقِ من عينيكَ فيكسو وجهكَ الصبوحَ إشراقًا ونفسك المرحة جمالا ؟

ما هذا الحزن الذي ما فتئ منذُ شــهورٍ عدة يعبث بقســمات وجهكَ ؟ انِظرْ إلى وجهكَ في المرآةِ، لقد أكل النحولُ جســدَك القوي، أراهنُ أنَّ في الأمر سرا.

قالتْ أختي منيرة:

- أظنَّ أن الأمرَ لا يتعلقُ فقط بعدم حصوله على وظيفة.

نهرتُها بيدي دون أن أنبسَ بكلمة واحدة.

- اتَّخذْ يا ولدي من تاريخنا وعزيمتنا دروسًا تُخرجكَ من القوقعة التي حبستَ نفسكَ فيها.

قاطعتُها قائلا:

- زمانُكم غيرُ زماننا...

- أنتَ مخطئٌ يا ولدي، التاريخ يلفُ ويدور ليعيد نفســه وإن تســترَ بأسماء ومتغيرات وزمان ومكان آخرين، وصدق من قال" ما أشبه اليوم بالأمس !"

صمتتْ برهةً ثُمَّ أردفتْ قائلة:

- يا بني، نحن وأنتم وأجدادنا وأولادكم، كلنا بشرٌ نكره ونحب ونحقد ونتألم وننسى أيضا، و العاقلُ مَن يتحكم بزمامِ أمرِه وليس من يترك نفسه فريسةً لحدثٍ عرضي أو أمر طارئٍ يُنغِّص عليه حياتَه، ويسلبه سعادته، ويقضي على شبابه.

هزَّتْ منيرة رأسَها مستحسنةً كلامَ أمي وقالتْ :

- أحسنتِ يا أمي ، فعلا ! " من فاتَك بليْلة فاتَك بحيلة ". قُصِّي علينا يا أمي حكاياتِك المنسيّة لأرويها لأبنائي وأحفادي، ومَنْ يدري لعلِّي أجسدها في رواية.

نظرتْ والدتي نحونا بتمعنٍ وقالتْ :

- آلامنا كانت كبيرةً جدًا، وتضحياتُنا كانت أكبر، ومع هذا وبالرغم من مرور أكثر من أربعين عامًا على تاريخ استرجاع الجزائر لحريتها مازالتْ هناك الكثير من الحقائق الخافية، ومازال هناك الكثيرُ من الأبطال الذين ضحوا بجهودهم وأموالهم ودمائهم الغالية وأحلامهم الصغيرة والكبيرة من أجل الحرية والكرامة لكنَّهم أصبحوا نسيًا منسيًا.

قلتْ بأسى:

- إنَّها غلطةُ التاريخِ .

- لا يا ولدي، لا ينبغي أن نُسيء إلى تاريخنا ونحمله ما لا يطيق، هذا الإهمالُ الذي لا يُغتفر، أنتم مقترفوه يا شبابَ اليومِ، فأنتم من قصَّر في حق أولئك الذين باعوا دماءهم وأرواحهم الغالية رخيصةً فداء للوطن.

سألتْ أختي بتعجبٍ :

- كيف ذلك يا ماما ؟

- إنَّكم تتذمرون من سماعِ ما تسمونه بثرثرة العجائز مع أنَّها في حقيقة الأمر جزء لا يستهان به من تاريخِ الأمم...حاولتُ أن أحدثكما مرارًا عمّا بقي راسخًا في ذاكرتي و قلبي من أحداث الماضي، لكنكما كنتما تفران من أمامي إلى جهاز الكمبيوتر أو شاشة التلفزيو ن أو إلى أي شيءٍ آخرَ تجنبا لثرثرتي .

قالتْ أختي بشفقة:

- هيا يا ماما، لن نهربَ من كلامك بعد الآنَ، حدِّثينا عن بقايا الذاكرة، قد نستخلصُ من ماضيكَ بعضَ الحِكمِ، وقد نتعلمُ من الماضي ما لم يعلِّمُه لنا الحاضر.

تمتمتْ أمي بحسرةٍ وبصوتٍ خافتٍ :

- أنا لستُ إلا واحدةً من الذين ساهموا في صنعِ تاريخ الجزائر المجيد،فهناك الكثيرون ممَنْ لازالتْ تضحياتُهم الجِسام في أرشيف الثورة الزاخرِ بالأحداث تنتظرَ مَنْ ينفض عنها غبارَ الزمنِ .

حدَّقنا في وجه أمِّنا بإمعانٍ، كانت التَّجاعيدُ تتشعَّب أوديةً وخطوطًا على وجهها النَّحيل، عيناها الحزينتان الغائرتان د اخل محجريهما راحتا تُسكبان ظلالا من الأسى والحسرة على قسماتها، وكان الزمنُ يوقع حضوره الثقيل على الشعيرات البيضاء المتسللة من منديل شعرِها ذي الألوانِ المتعددة والمتموجة لتشهدَ على شيخوخةٍ جلية وآلامٍ دفينة.

رحنا نسافرَ إلى الماضي رويدًا رويدًا، أ صبحتْ حاسةُ السمعِ لدينا أقوى من كل الحواس، كان صوت أمِّنا يأتينا من خلف السنين قويًا ومجلجلًا، وكانتْ نظراتُ ها تخترقُ جدرانَ الكلماتِ، وتتركُ العنانَ لعينيها لتنقلا لنا صورًا من ماضيها المجيد .

حدَّثتنا عن التحاقِ والدنا بالثوارِ لمقاومة الاســـتعمار الفرنسيـــ و عن مهمة تزويدها للمجاهدين بالمُؤن الغذائية، عن العقابِ الشـــديد الذي ذاقتُه على أيدي الفَرنســيين حتى تعترفَ بانتمائها للجبهة، وعن بطولاتِ مؤثرة لرجالِ صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه.

وفجأةً غيّرت أمي موضوع الحديث قائلة :

- لو كان أبي إنسانًا تقيَا ما ذقتُ طعم الهوان، و لما تألمتُ كثيراً بسبب فقر والدكما.

سألتُها قائلا:

- وما علاقة تقوى جدي بفقرك ؟

نظرتْ إلىّ بشرودِ ثم أجابتْ :

- إنَّها حكايةٌ عجيبة ،سأقصها عليكما لتكون عبرةً لكما.

كان جدي محمد شخصًا كثيرَ المال من مختلف صنوفه،حيثُ كان يملكُ أرضـــاً واســـعة، وقُطعانا عديدة من الأَبقار والأغنامَ والماعزَ والخيول بمنطقة لَمْزَارَة التابعة لعَرْش بْنِي زِيدْ مسقط رأسي، وكان إنسانا تقيَا وصالحا ومُحسنا، أما ولَده الوحيدَ والذي هو أبي فكان شخصا كسولا ومبذِّراً يقضي معظمَ وقتِه في اللهو والقمار.

في ليلة من الليالي رأى جدي حُلما تكرّر بعدَها في الليلة المُوالية، ولأنَّه اعتاد على الأَحلام التي تتحقق غالبا فقد صـــدَّق جدي الرجلَ الذي أمره في الحُلم ببيع كلِّ أملاكه وشراء بثمنها ذهباً وفضـة، وبدفن الكنزِ بعيدًا عن عينَي ولَده صـالَح، كما أخبره أن المالَ سـيصـبحُ من نصـيب حفيدِ من أحفاده مؤمنٌ باللهَ وتقيٌ ومخلص. قام جدي بالعمل الذي أُمِرَ به، وبعدَ يومين مَرِضَ مرضًـــا

شـــديدًا أقعدَه عن الحركة وصـــار أبكمًا لا يقوى على الكلام، وعندما ثارتْ في داخله عاط فةُ الأبوة والحنَان، حاول أن يدل ولده على مكان الكنز بواســـطة الإشـــارات، لكنه تُوفِّي دونَ أن يتمكنَ من ذلك، بعدها راح والدي يبحثُ دونَ كللٍ عن الكنز المفقود، حفر أسفل الأشجار وبجوار صخورِ المنطقة، هدمِ المنزل الحجري علَّه يجد الثروة المُخبّأة، وعندما يئس شَتمَ وغضب ولعن الحُلمَ الذي حرمَه من المنزل و الميراث معا، لو كان أبي مخلصًا ومحبًا ومطيعًا لله تعالى ما حَرَمَه اللهُ من أملاكِ والده .

قلتُ متعجبًا:

- لكن أين دُفِنَ الكنزُ يا تُرى ؟

- لستُ أدري، الله وحده أعلمُ بمكانه.

- كم تبلغ قيمته ؟

- لا أعلم، كل ما أعرفه أن قيمةَ الذهب تزيد من ســـنةٍ إلى أخرى فما بالكما بِمائةِ سنةٍ ؟!

قالتْ أختي بحماس:

- القصةُ مشوقةٌ جدًا...

ابتسمتُ وسألتُها:

- ستكتُبين روايةً أخرى، أليس كذلك ؟

أجابتني وكأنَّها كانت تُعنيني بكلماتٍ زعزعت قلبي، وحرّكت في داخلي مشاعرَ الخوفِ :

- ولِمَ لا! ستكون القصةُ عبرةً لكلِّ كسولٍ يريد الحصول على الكسب السهل وبطرق لا شرعية، فالله يَا أخي يُمهِل ولا يُهمِل، وكلُّ مَنْ يرتكبْ إثمًا سيدفعُ ثمنه غاليا آجلا أم عاجلا.

لكني تدخلتُ مُحتجًا، وكأنِّي كنتُ أبعدُ التهمةَ عنِّي بإثباتي لِبراءة جدي صالح :

- لكن والدتي حدثتنا مرارًا عن القصة، وأخبرتنا أنَّه لو لم يقم جدي محمد بإخفاء الكنز لخسر ولده صالح كلَّ أملاك والده ليس بسبب عقوقه وأخلاقه السيئة فحسب، ولكن لأنَّ الاحتلال الفرنسي قام بعد حوالي خمسين سنة من تاريخ دفنِ الكنزِ بترحيلِ جميعِ سكانِ لمزارة إلى محتشد سيدي علي الشّارَف ثُمَّ قَصَفَ هذه المنطقةَ جوًا إلى أن دَمَّرَ معظم أكواخها وبيوتها، وأباد حيواناتها عن آخرها، ربما أراد اللهُ بحكمته أن تبقى أموالُ جَدي محمد ليعثرَ عليها أَحدُ أحفادِه رحمةً منه وإكرامًا لصلاح جدنا الكريم .

في الخارجِ كانتْ عا صفةٌ خريفية ترسلُ برعودها القوية وبرياحها العنيفة وبطوفانٍ من الأمطار على المدينة الساحرة المسجونة بين البحر والجبل، رفعتُ نظري نحو أختي منيرة، فجذبني سناءَ عينيها الحالمتين، كانت أصابعُها الرقيقة كفرسٍ تركضُ في ميدان السِّباقِ وهى تَخُطُّ بدايةَ روايةٍ جديدة...

تساءلتُ في سري :

" كم كتبتْ أختي من حكاياتِ منذُ الصغر ؟

لا أعرف .. قد تصلُ أرقامُها إلى المئات،كانت دومًا تكررُ حكايةَ كلِّ واحد منَّا،حكاية خالدة، نموتُ وتبقى محفوظةً إلى يوم يبعثونَ في كتبٍ تخطُّها مَلائكةُ النور كلَّ يومٍ، ألا تستحق هذه الحكايا منا نحن البشرَ أن نخطَّها لتبقى عِبَر ؟

لكن أختي لم تجعلْ قصصها عبراً إلا لها، أو لبعض المقربين، لم تنشر حرفًا واحدًا، أفكارُها بقيت محجوزةً داخلَ عقلها وحتى داخل الوريقات و الأدراجِ، فالفقرَ منبعٌ لكثيرٍ من المواهب، والفقر أيضا سجنٌ لكثيرٍ من المواهبِ؛ فنشرـ الأفكارِ يتطلبُ مالًا أو خيوطًا دبلوماسية أو رشوةً أو جرأة كبرى، وأختي المسكينة لا تملك شيئًا من كل ذلك، فرأسُ مالِها الوحيدِ كلماتٌ .. ثُمَّ كلمات...ثُمَّ كلمات..

هكذا لكل إنسان كنزه الثّمين، كلماتُ أختي كنْزُها،وكنز أمي ذكرياتُها، وأنا أين كنزي ؟ بئس الشَّهادةُ التي لم تفتحْ لي سوقَ العملِ، وبئس إرادَتي التي قتلَتْها سُندس وأمواج الحياة، لم يبقَ لي أيّ كنزٍ ثمين، لن أخسر شيئًا إنْ أنا واصلتُ ترويجِ الأوراقِ النقدية المُزوّرة، الأمرَ لا يستدعي كل هذا الخوف، إن أُكتُشفَ المستورُ فلنْ تكونَ العقوبةُ كبيرةً، لن أقضي إلا سنتين في السجن أو أكثر بقلَيل، وربما سأخرجُ قبل ذلك بعفوٍ رئاسي في إحدى المناسبات الوطنية، بعد خروجي سأمارسُ تجارةً شريفة بالمال الذي جمعتُه، ووداعا للحرام بعدها.

تمنيتُ لو كانت شجرة أمي حقيقية، إنِّها حكايةٌ من الطفولة بقيت عالقة في ذهني، ذات صباحٍ مشرقٍ و في حديقة البيت الذي سكنَّاه قبل انتقالنا إلى العمارة التي نسكنُ فيها حاليًا، كنتُ جالسا إلَى جانبِ أمي التي راحتْ تغسلُ الثيابَ داخلَ إناء بلاستيكي كبير، كانت قطعة نقدية من فئة " عشرة دورو " في يدي. رحتُ أَغمسُها داخلَ فُقاعات الصابون لأجعلها لامعةً وجميلة، بعد أنْ أنهت أمي عملهَا رمت بقايا الماء الممزوج بالصابون خلفَ سياجِ الحديقة، عندها صحتُ بهلعٍ، لقد كانت القطعة النقدية داخلَ الإناء، لكن أمي ربتت عَلى كتفي قائلة :

- لا تحزنْ يا ولدي ستكبرُ القطعةُ النقديةُ وتصبح شجرةً، وعندها ستقطف ما تشاءُ من النقودِ .

و صدقتُها، كنتُ أقصدُ المكانَ في كلِّ صباحٍ، وأمدُّ بصري خلفَ السِّياجِ علَّ شجرتي تشقُّ الأرضَ نحو الأعلى، واستمر الحالُ إلى اليومِ الذي وجدتُ فيه طيرٍ بَلَارَجْ منهكًا لا يقوى على الطيران في مكان بذرتي، فصارتْ الهوايةُ هوايتين: أنتظرَ نمو الشجرة، وأطعمُ الطائرَ المسكين من بقايا الطعامِ الذي كنت أجمعه بعناية كبيرة داخلَ صحنٍ قديم، إلى أن شُفِيَ البلارج، وطار عاليًا، واختفى للأبد، لكن الشجرة لم تنمُ، فشكوت ذلك لأمي، فقالت مداعبةً :

- لابد أن البلارج قد أخذ البذرةَ معه، وطارَ بها ليغرسَها في مكان بعيد.

فصدقتُها مرة أخرى، وصار حزني مضاعفًا، حزنٌ على الطائر المهاجر وحزنٌ على بذرتي".

وقررتُ أنْ أقومَ بصفقةٍ أخرى علَّ النقود تنبتُ شجرةً .

خرجتُ إلى الشارع تاركًا خلفي أختي منيرة، وهى تخطُّ ماضي الوالدة في خشوعٍ .

راح الطمعُ يحرك في داخلي مشاعرَ جديدة وغريبة :

- ماذا لو وجدتُ كنزَ جدي؟ سأصبح غنيًا، وسأشتري سيارةً فخمة جدًا، أسافرُ بها إلى حيثُ تسكن سندس؛ لأجعلها تحسَّ بالندم على خيانتها، سأفتحُ عيادةً طبية خاصة،ومؤسسة كبيرة للبناء وسأصبح مليونيرًا،لكن جدي قال أنَّ الكنزَ سيؤولُ إلى شخصٍ مؤمنٍ وصادقٍ، ولا أظنُّ أنَّه سيكون من نصيب إنسانٍ مثلي يبتعدُ عن الله يوميًا بعدة سنواتٍ ضوئية، ربما سيؤولُ إلى أختي منيرة، أتمنى ذلك فعلا؛ فهى طيبة وحنونة وتؤدي صلواتها الخمس في أوقاتها، وأظنُّ أنَّها لن تبخلَ علىّ بقسطٍ كبيرٍ منه.

انتهتْ ا لعا صفةُ لتفسحَ المجال لرذاذٍ خفيفٍ ليوا صلَ غسلَ المدينةِ من حرِّ الصيفِ وغباره.

يا ليته كان قادرًا على غسلِ ذنوبي وآثامي!

لكن أنَّى له ذلك، وقلبي بحيرةٌ متجمدةٌ ، واللهُ لا يُغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ..

وكنزي لم يعدْ في السَّـــماءِ وإنَّما في درك الأرض، وقلبي مُعلَّقٌ بكومةٍ من الأوراقِ النقديةِ المُزوَّرة ..

وأنا أرفضُ التغييرَ وأصرّ على الخطأ،وإبليسُ يبتزني، يســـتثمر خطاياي، يتفنن في إغوائي.. فكيف لله أ نْ يُغيِّرني؟ وكيف للمطر أن يغسلني؟ وكيف للكنز أن يكونَ من نصيبي؟

عندَ بدايةِ الشارعِ الذي كان يقبعُ فيه منزلُ أصدقائي الجدد فوجئتُ بيدٍ تمســكُ بكتفي، اســتدرتُ إلى الوراء فإذا بالشــيخ ياســين يتأملني بحيرةٍ، ســألتُه بعطفٍ :

- ماذا هناك ؟ كيف حالُ ياسمين ؟

- إنَّها بخير والحمد لله. إلى أين أنتَ ذاهبٌ ؟

- إلى منزلِ أصدقائي.

أمسكَ مرفقي، وهمسَ في أذني بحزمٍ وهو يدفعني إلى داخلِ محله :

- لا تذهبْ يا بني فالشرطةُ هناك .

أحسستُ بكاملِ جسدي يرتعدُ، لقد كُشفَ المستورُ، وسأقعُ دونَ شكٍّ بين أيدي الشرطة، عندها ستبكي والدتي المسكينةُ بحرقةٍ، وستسعد حنين لأنَّ

اللهَ انتقم لها منِّي بسرعةٍ فائقة، وسيتبرأ والدي منِّي، أما منيرة الطيبةُ فستحزنُ بقوةٍ، وســتحاولُ بث أوراقها لواعج نفسِــها بعدَ أن كانت تشــاركُني أفراحَها وأتراحَها.

في المحل، قال الشيخُ ياسين:

- أتمنى ألا يتفطنوا إليكَ يا رب، أخبرني يا ولدي، ما الذي رماكَ في هذا المستنقع؟

أخرســتني الدهشــةُ، وبعدَ برهةِ صــمتٍ أجبتُه بصــوتٍ متهدج، ووجهٍ عبث الخجلُ بملامحه :

- إنَّه الفقرَ .. أجل..أجل إنَّه الفقر ..

- وأين الصبر يا ولدي؟ قال عز وجل " واستعينوا بالصبرِ والصلاةِ وإنَّها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين ".

قلتُ بغضــبٍ مســتترٍ خلفَ كلمات هادئة احتراما لمحدثي، وقد تصــاعدَ الدَّمُ إلى وجهي، وعادتْ ذكريات أحلامٍ لم تتحققْ إلى ذهني :

- كيف يمكنُ أن أصــبرَ ونصــيبي من الوجود لا يتعدى قطعًا نقدية أتلقاها من والدي تحتَ وابلٍ من الشتائم ؟ أتظن ..

قاطعني الشيخُ قائلًا برصانةٍ وطيبة :

- لم أتعرفْ عليكَ يا ولدي من قبل، لكني لمحتُ النُبلَ مرســومًا على محياكَ، وأحسستُ بالحنانِ في لمساتكَ، وأنتَ تُقدِّم الإسعافات الأولية لحفيدتي إثر تعرضها للحادث المشئوم، ولهذا أريدُ أن أفتحَ لكَ صدري واسعًا ليحتضنَكَ كما احتضــنتَ مشــاعري يومَ إنقاذِكَ لحفيدتي، مادمتَ حيًا يا ولدي ســتعيشُ

الحلو والمر، فالإ نسانُ خُلِقَ ليسعدَ ويتألمَ، ومِن الآلام تنبعُ الحِكَمُ، وتُتقَدُ الهِمَمُ .

قلتُ بأسى :

- ومِن الآلام أيضًا تنبعُ الأمراضُ النفسيةُ والعقدُ ..

قاطعني قائلًا بإصرارٍ :

- بأنفسِ الضـــعفاء فقط، أما الأقوياء يا ولدي فهم يتجاوزون الآلامَ بإيمانٍ وهمةٍ وشَـــجاعة، علَيكَ يا ولدي أن تحسَّ بقيمة الحياة وأن تُقدِّرَ في لحظات الضـــعف والحرمان النعم الكثيرة التي مَنَّ اللهُ بها عليكَ، تصـــوّر أنَّكَ أعمى لا ترى أشـعةَ الشَّـمس و لا ضـياءَ القمرِ، تصـوّر أنَّكَ مُقْعَدٌ لا تسـتطيعُ التنقلَ إلا بمســاعدة الآخرين، تصـــوَّر أنَّكَ مجنونٌ متســخٌ الثِّيابَ تتســكعُ في الطرقات،والأطفالُ الَسيئون يرمونكَ بالحجارة، تصوّر أنَّكَ مريضٌ مرضًا ميئوسا منه تنتظرُ الموتَ كلَّ دقيقةٍ بل وتتمناه، أليســت الصــحةُ يا ولدي من أعظمِ النعم؟ فاحمدْ اللهَ على صَحتكَ، واطلب منه أنْ يُديمَها عليكَ، وحاولْ أنْ تُجدِّدَ حياتكَ نحوَ الأحسنِ، وأنْ تتسلَّحَ بالإيمانِ بالله تعالى و بقضائه وقدره، إنَّ فشلَ اليومِ يا ولدي هو نجاحُ الغد، فما أروعَ أن نشـعلَ شـعاعَ المحبةِ والخيرِ ليكونَ شمساً ساطعةً تطردُ ظلمةَ الليلِ من حياتنا،وتُهدئ سرعةَ الأمواجِ السوداءِ التي قد تُعكرَ شاطئَ أمننا .

أحســـســـتُ بالخجلِ يلفُني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، ويُلزمني الصـمتَ رغمًا عنِّي، فلم أسـتطعْ التفوهَ بالسـؤال الذي ما فتئ يُلهب شـفتي " كيف علمت بنشـاط الجماعة ؟ "، وبعد جُهد جهيد تمكنتُ من الكلامِ بصـوتٍ منخفض قائلا:

- باركَ الله فيكَ، لن أنسى فضلَكَ ما حييتُ، إلى اللقاء.

قال الشيخ ياسين وهو يرمقُني بنظرةٍ ثاقبة وحنونة:

- إن أنقذ تكَ الأقدارُ من السـجنِ فعدْ يا ولدي إلى هنا، أتمنى أن تساعدَني في عم لي، فاللهُ يا ولدي خلقَ للطيور أجنحةً لتطيرَ إلى رزقِها، سأدعو اللهَ بعدَ كلِّ صلاة أنْ يلفَّكَ برحمته الواسعة.

قضيتُ أيامًا لن أنساها من شدةِ الخوف والترقُّب، لم أذهبْ إلى منزل العائلة، وبقيتُ في منزل أختي التوأم منيرةَ التي أحسَّت بتغيري، وحاولتْ مِرارًا معرفةَ السـبب لكن دون أن أمكنها من ذلك، فماذا أقول لها ؟ أخوك مجرم ومُزوِّر، طبعا لا.. لا يمكن ..

سجنتُ نفسي في دوامةٍ من الرّعبِ والقلقِ والترقب...

وكانت الأسئلةُ سكاكينًا تنخرُ عقلي في كل لحظةٍ :

" هل سَيَزَجُ بي في السجن مع المجرمين واللصوص، أم سيحميني اللهُ من العارِ؟ لا أظنَّ ذلك؛ لقد أخطأتُ ولا بد أن أنال العقابَ، يا ربِّ رُحماكَ .

وقتها عرفتُ أنَّ الحرّيةَ أيضا كنزٌ من الكنوز، كنتُ فيما مضى أملكُها ملكيةً تامةً، ولم أحسّ بقيمتَها إلا حين كدتُ أفقدُها.

وبكيتُ مثل النساءِ مُلكًا مُضاعًا لم أحافظْ عليه مثل الرجالِ .

ولما انقضى أسبوعان عن الحادثة، اتصلتُ هاتفيا بالبيتِ، رفعتْ أمي السماعة :

- ألو ! أمي، كيف الحال؟

- عُدْ حالا، أبوك مريضٌ،وأنا لا أقدر على القيام بواجبات المنزل وحدي، وأختك سليمة متوعكة قليلا.

- هل من شيء آخر.

- لا شيء.

- هل سأل أحدٌ عني ؟

- لا أحد.

تنفَّستُ الصعداء، وأنا أقول لها:

- حسنا، سأعود بعد قليل.

انقضى شهران منذُ أن قُبِضَ على أصدقائي، ولم يحدث ما توقعته، وأحسستُ أنَّ اللهَ قد نجّاني رغم جحودي...

كان خجلي من نفسي كبيراً، ومن الله أكبر...

وصحتُ من ظلمات نفسي أن لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين .

وصار لي بدل الكنز كنوز عديدة:"الحرية والإيمان بالله والصحة والشباب والعائلة ".

وصدقت أمي، فقد حملَ البلارج قطعَ الأوراقِ المزيفة، ولم تنبتْ الشجرةُ التي تثمرَ نقوداً.

*****

أشعةُ الشَّمسِ راحتْ تداعبُ وجهي بأناملها الدافئة، وتمتدُ عبرَ قطراتِ من الأمطارِ الخفيفةِ نحوَ الجهةِ الأخرى من السماء؛ لترسمَ بريشةٍ إلهيةٍ قوسَ قُزح، البحرُ يبدو هناك أزرقًا فاتحًا يُبشر لونُه بفترةٍ من الصحوِ الجميلِ. جبلِ مَزْغيطان لا يزالُ منذُ ولادتِه شامخًا يغازلُ البحرَ في صمتٍ بليغ، وهو يحرس

في دورانه مدينةَ جيجل التي لا تزالُ تحيا تحتَ قدميه منذُ عصــور، فســبحانَ الله، كيف لي أن أتصـــورَ هذا الجبلَ الواقفَ أمامي يمرّ مرّ السَّـــحاب دونَ أنْ أحسّ بذلك ؟...

العالمُ يدورُ من حولي، وأنا أيضًا أدورُ حولَ الشَّمس وحولَ نفسي، أفكاري المتصار عةُ تدورُ بدورها داخلَ جمجمتي، كلُّ شيءٍ أصبحتُ أحسُّه ديناميكيا...

انتشلني صراخُ الأطفا لِ الحابل بالسعادة من هواجسي؛ إنَّهم يستقبلون قوسَ قُزح بأهازيجَ وفرحٍ، أرســلتُ بصرــي إلى الأمام، كان هناك ثلاثةُ صِــبيةٍ يلعبون أمامَ السّورِ الخارجي للحي .. سألَ أحدهم قائلا:

- لماذا لا يسقطُ قوسُ قُزح لأتمكنَ من لمسه ؟

ردَّ آخرَ :

- ولماذا لا تطيرُ أنتَ نحوَه ؟ انظرْ إلى تلك الطيورِ، إنَّها تُحلِّقُ عاليًا بحرية مُطلقةٍ، كم أتمنى أن أصبحَ عصفورًا ينتقلُ من بلدٍ إلى آخر دونَ تأشيرةٍ .

حرّك أحدُ الصِبية ذراعيه بخفةٍ وصاحَ، وهو يركضُ بسرعة:

- انظرا ؟ إنِّي أطيرُ عاليًا ..عاليًا .. اتبعاني..

طارَ الطفلان الآخران خلفَه، وعند ما مرّ الأطفالُ بالقربِ منِّي وهم يصدرون أزيزًا كأزيز الطائراتِ، صحتُ بابتهاجٍ كبير:

- هذه هى السعادةُ الحقيقية، سعادةٌ لا زيفَ فيها ولا تكلُّف .. يا لها من سعادة !

وددتُ لو تبعتهم، لو طرتُ مثلهم، لو ضحكتُ ببراءة، لكن أيمكن ذلك ؟ ولمَ لا ؟ العمرِ قصيرٌ ودفءُ الشَّمسِ لا بد أن يُذيبَ صقيعَ الحزنِ في قلبي، وأن يغسلَ أخطاءَ الماضي وأوهامه، وأن يُعيدني طفلًا يحلم ببراءة من جديد ..

كـان علىّ أن أقفزَ فوقَ الألمِ والمعـانـاة، وأن أتخلصَ من عُقـدي الدَّفينة، كلماتُ الشـيـخ ياسـينِ قاومتْ عنادي بصـبرِ وشـجاعة، وراحتْ تقتنصُ ثغراتِ أحاسيسي؛ لتتسللَ عبرها إلى نفسي الأمَّارة بالسوء فتُهذِّبُها وترشدها إلى الطريقِ السَّـــوي، فتجددُ الحياةِ ينبعُ من الداخل، والفشـــلُ تجربةٌ مريرة لكنَّها صانعةُ الرجالِ وصاقلة النفوس، وصدقَ الله تعالى في قوله "وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم ".

تعجبتُ لماذا سمحتُ لنفسي بالسقوطِ بالضربةِ القاضية.

لم أقاوم، بل لم أحاولْ أنْ أقاومَ، لماذا جعلتُ الشـــيطانَ يقهرني وهو عدوي ؟ أهو الضعفُ الإنساني؟ أم هو قلةُ الإيمان ؟

راحتْ الأفكارُ تعبثُ بنفسي يمينا ويسارا، اعترفتُ أخيراً أنَّ الدِّموعَ التي ذرفتها عندَ أقدامِ حبوهمي كانت حمقاء وغبية، وأنَّ الحياةَ أجملُ من أن نقتلها حزنًا قطرة بعدَ قطرة، وأنَّ الحُبَّ أســـمى من ثوراتِ الأنا ، ومن تمرّدِ العقلِ الباطن، وقررتُ أن أطيـرَ ..

*****

في صـــبيحةِ اليومِ الموالي، نهضـــتُ باكراً على غير عادتي، تناولتُ فُطوري بسرعة، وخرجتُ إلى الشـــارع، أشـــعةُ الشـــمسِ الأولى راحتْ تخترقُ بخجلِ السّحبَ الكثيفةَ في سماء ذلك اليومِ الربيعي الجميل حاملةً دفئَها الحبيبَ إلى جســـدي، أسرابٌ من الطيور كانت تبدو في الأعلى كقوافلَ طويلةِ،وهى عائدةٌ بعدَ رحلةِ شتاء طويل إلى موطني، موطن الحب والحنين ..

بالقربِ من مركز البريدِ والمواصلات، كان باعةُ السردين يعرضون سلعَهم بإغراء تُزينه باقاتٌ خضرـــاءِ من " المَعْدْنُوسْ" وشرائحٌ من الليمون الأصـــفر، وكانتَ أصـــواتُهم تُمزِّق هدوءَ الصـــباح: "أشْرِيوالسّرـــدينْ بربْعَ الاف بَرْكْ. هيّا خُويِي... قَدَّشْ تَسْحَقْ ؟ كيلو؟ زوج ؟... اشْرِي و مَاتَنْدَمْشْ ... "

الحياة جميلة لابد أن نحرصَ عليها، والحريةُ نعمةٌ من نعم الله !...

الطبيعةُ بدورها حُبَلى بالحكم، ها هى أزهارُ البابونج البيضـــاء تَتَفتح بعد سُباتِ ليلة طويلة لتحضـنَ نورَ الشَّمس وتنشرـ البهاء، وها هى الشـمسُ تقومُ بدورِها الأزلي بسخاء وبدون مقابل، كلٌّ يقومُ بمهمة مقدسة، لماذا لم أكن أرى كلَّ هذا الجمالِ من قبل ؟ لماذا ؟!

أحسستُ أنِّي أُبعَثُ من جديد، فقد كانت كلماتُ الشيخ ياسين مِفتاحًا لبابٍ كبير يُخفي وراءه الكثير من الخيرِ والحِكمِ والحُبِّ والإيمان .

*****

دخلتُ في هدوء إلى متجرِ بيعِ ألبســة الأطفال المُســتَوردة، كان الشــيخ ياســين منهمكًا في تنظيف الأرضــية، وما أن رآني حتى أســندَ أدوات العمل إلى الحائط، وأسرع نحوي، وابتسامةٌ طيبةٌ ترفرفُ على شفتيه، سحب كرسيًا خشبيا من خلف " الكُونْتوَارْ" وقال مبتسمًا:

- تفضَّل، تفضَّل يا ولدي، هاه هل فكرتَ في الأمرِ؟

- نعم.

- وإذن ؟

- أنا موافقُ، ليس أمامي إلا أن أوافقَ، الفرصةُ ثمينةٌ وعلىّ اقتناصها.

اتسعتْ ابتسامته لتفسحَ المجالَ لبياضِ أسنانه ليطلَ من خلف شعيرات شاربِه ولحيته الكثيفة، وقال بسعادة:

- حسنًا، سنشكلُ ثنائيًا ناجحًا بإذن الله تعالى..ألديكَ جواز سفرٍ ؟

- نعم .

- جيد، هل يمكنكَ السفرَ خلال أسبوعين؟ المتجرَ يكاد يخلو من الألبسة؛ فالشابُ الذي كان يعمل معي تمكَّن من فتح متجرٍ خاص به، صحتي لم تعد تسمحُ لي بالسفر، لقد توقفتُ عن التنقلِ إلى خارج المدينةِ منذُ سنوات.

- إلى أين سأسافر ؟

- إلى تركيا.

- تركيا !

- أيزعجُكَ الأمرَ ؟

قلتُ باسمًا:

- طبعا لا، لم أحلم مُطلقًا بالسفر إلى الخارج، إنه أمرٌ رائع، أنتَ تتيحُ لي يا أَبَتِي فرصةً ثمينة.

التمع الدَّمعُ في المقلتين الغائرتين الطيبتين، وطفح الحزنُ ليرسمَ بريشته البارعة ألمًا دفينًا عاد توًا إلى الذاكرة العجوز، رحتُ أتأمله كأنِّي أراه للمرة الأولى، كان شعرُه الأبيض القصير يطلُّ من خلف قبعته البيضاء ليحيطَ بوجهِه المتلألئ بنور البساطة والطهارة والنبل والشَّرف، سقطتْ دموعٌ حارَّة وساخنة على وجنتيه لتبللَ وقارَ لحيته البيضاء، وقال منتحبًا كطفلٍ صغير:

- منذُ سنواتٍ لم ينادني أحدٌ بِأَبَتِي .

أحسستُ بالأسف فَصَمَتُّ. لكنَّ الشيخَ الطيبَ شعر لي بمثلِ ما شعرتُ له بـ ه من العطف والاحترَام والأنس، فراح يسردُ حكايته وشُعيرات لحيته البيضاء تتراقصُ حزنًا، وهى تغتسلُ بالدِّموعِ الطاهرة:

- كنتُ أباً، لكن يدًا مجهولة ســحقتْ أُبُوَتِي دون رحمة، كان ولدي مُعَلِّمًا في إحدى المدارس النائية بمنطقة بْني يَاجِيس، توسـلتُ إليه مرارًا وتكرارًا أن يتوقفَ عن العمل، فالمنطقةُ وقتها كانت تتعرضُ لعمليات واشــتباكات مُسلَّحة كثيرة، لكنه لم يُعرْ توسلاتي آذانًا مصغية، كان متشبعًا بمهمته المقدسةَ، لم يسـتوعب يومًا فكرة ابتعاده عن تلامذته الذين كانوا ينتظرونه لينيرَ حياتهم بالعلمِ مثله مثلَ بقيـ ة المُعلمينَ الذين نا ضلوا في سبيلِ إبقاء مدرستهم مفتوحةً أمامَ التلاميذ الفقراء، كما طلبتُ منه مرارًا أن يتركَ السياسة لأصحابها، فهى تيارٌ جارفٌ لا يفرقُ هيجانه بين الأبيض والأســود،ولا بينَ البريء والمجرم، لكنه أبى وواصلَ نضَا لَه السياسي في ظل الظروف الصـعبة التي عرفتها بلادُنا مؤخرا، أذكرَ أنَّه قالَ لي يوما " لا بد للسـفينة من رُبَّان يقودُها إلى برِ الأمانِ، ونحن نناضـلُ لنختارَ الربَان المناسب والنزيه ". قلت له " ولكن مائة قائد للسفينة سيغرقونها ، والأحوال حاليًا يا بني تنذرُ بقدوم عا صفة شديدة الـسواد قد تُغرقُ الـسفينةَ بمَنْ عليها في بحر من الدِّماء ". فقال " هنا تكمنُ مســئوليتنا، يجب أن نحمي السـفينةَ بمنْ عليها بدمائنا وأرواحنا، وليتحقق ذلك يجبِ أن نضـحي"، في ذلك الصباح المشئوم، نهض ولدي باكرًا كعادته، كان البرد قارصًا جدا، وكانت الأمطارُ سـيولًا جارفة ، شَرِبَ كأس حليبٍ دافئ، وودَّعنا على عجل، كان حريصًـا على ألاّ يَصــلَ متأخرًا إلى العمل، لكنه لم يَصــلْ أبدا،لقد اختفى ليُعثرَ عليه بعد أيامٍ مقتولا في الغابةِ القريبةِ من المدرســة، ولا أحدَ يعلمُ إلى حد الآن لِمَ قُتل؟ ولا من قتله ؟

وجمَ الشيخُ يا سين قليلًا، وظل صامتا لا يقولُ شيئا، وقد ارتسمتْ على ســحنته غمامةٌ رقيقة من الهمِّ والأسى، وفجأة انخرطَ في زوبعة من البكاء،

فبكيتُ لبكائه، مسح وجهه بمنديله، وراح يحاولَ إعادة التوازن إلى روحه الهشَّة، وضع يده على جبينه المُغضَّنِ كأنَّما كان يبحثُ بين طياته عن بقايا ذكريات وقال :

- بعدَ بضعة أشهرٍ من رحيله إلى ملكوت الله، ولِدتْ ابنتُه ياسمين ، إنها البنتُ التي شاء اَللهُ أن تُنقذَ على يديك.

وتذكرتُ الحادثة التي جعلت الشيخ ياسين يُحبني ويحميني من قسوة الأيام، كانت أمي تقول عادةً حينَ تهمُ بأيِ عمل خيري" قد نزرع بذرة خير فتنبت سنبلة أو شجرة ".

مارستُ مهنة الطب في لحظة وظفني فيها ضميري، فزرعتُ بذرةَ حبَ في قلب شيخ أعيته السنون والذكريات الحزينة، وصارت البذرةُ شجرةً قررت أن تحميني من الصواعق بأغصانٍ من الامتنان والحب والحنان، فأكبرتُ الرجلَ في نفسي، وعلمتُ أنَّه يحملُ في داخله أخلاقا سامية ونبيلة.

استرسل الشيخُ في كلامه، وعندما انتبه إلى أنَّه أطال الحديث،تنهَّد تنهيدة طويلةً،وقال بأدبٍ ينمَّ عن حكمة صقلتها الهمومُ، وهو يمسح دموعه بيدٍ مرتعشة ورشيقة :

- سامحني يا ولدي، لقد أزعجتُكَ بذكرياتي، لنعد إلى موضوعنا. فراستي دقيقة جدا. لقد أنستُ بكَ وبمنظرك الجميل الأنيق الذي ينمٌ عن ذوقٍ رفيع، سأعتمدُ عليكَ في اَختيار ملابس أطفال أنيقة.

- سأكونُ عندَ حُسن ظنكَ إن شاء الله.

- المتجرَ يكاد يخلو من الألبسة، علينا أن نجهزَه كما يجب بعد عودتكَ من تركيا، عليكَ بالطيران إلى سوريا.

*****

مرّتْ الأيَّامُ سريعةً كالثواني...

وتغيّرتْ حياتي كما تتغيّرُ حياةُ آلاف البشر...

أنستني رحلاتي أحزاني...

تمكن "المُورفين" الجديد من تهدئتي، ومن طرد السَّحبِ السوداء من داخلي، والأهم أنِّي توقفتُ عن طلب مصروف الجيب من والدي، وأحسستُ أن الموتَ البطيء بدأ يفكُّ أسري تاركًا مكانه للحياة والسعادة كي تتجدد في عروقي، شكرتُ اللهَ الرازق و القادر و الرحيم ، فأنا لم أكنْ وحدي، فقد كان اللهُ إلى جانبي، وشعرتُ أنَّ نفحاتٍ من الفطرة الإلهية راحتْ تُنعشني لتتغلبَ على قسوة قلبي وأخطائي.

رغم جحودي وإجحافي في حقِّ ديني ونفسي وعائلتي ووطني، كان القدرُ إلى صفِّي.

وكانت دعواتُ الشيخِ ياسين مِفتاحًا لِعالمٍ جديدٍ ولحياةٍ جديدة.

وهكذا أيقظتني الصدمةُ من سُباتٍ عميقٍ، وعلَّمتني حقيقةَ الحياةِ ومعنى الوجودِ .

الفصل الرابع

" عائدة بدون فيـزا "

تناولتُ فُطوري بسرعة، حملتُ حقيبة السفر، وودعتُ عائلتي، كان علىّ أن أسرع كي لا أصـــل متأخراً إلى مطار "أشـــواط" لكي أســـتقلَ الطائرةَ باتجاه الجزائر العاصـمة، أمام العمارة ســمعتُ صــوتًا يناديني، دقَّ قلبي بعنف، إنها حنين.

- منير .. منير .. انتظرْ رجاءَ.

التفتُ إلى الخلف، واقتربتُ منها وعلامات الاســـتفهام والتعجب تتطاير من عيني، قالتْ وحُمرةُ الخجلِ تلوّن خديها :

- أخبرتني منيرة عن موعد سفركَ، فانتظرتكَ هنا لأعطيكَ هذا.

أخرجتْ من حقيبتها رسالةً،وأضافتْ وهى تقدمها لي بحركة سريعة :

- رافقتكَ السلامة.

أمسكتُ الرسالة، طويتُها ودسستها داخلَ جيب قميصي.

بقيتُ برهةً واقفا،وأنا أراقبُها،وهى تبتعدُ وآلاف الأســـئلة تركضُ إلى ذهني ركْضًـــا ، ثم انتبهتُ إلى أن الوقت يمر، فأسرعتُ الخُطى نحوَ موقف الحافلات.

*****

من فوق السَّـــحبِ ومن تحتها وعبرَ النوافذ الصـــغيرة لطائرة البوينغ، رحتُ أتأملُ الخطوط الجغرافيـة والوديان الغائرةَ والمرتفعات والتلال والمروج والبيوت الصغيرة التي كانتْ تبدو كلعبِ أطفالٍ متناثرة، أحسستُ بتفاهتي، لم أعد سوى ذرة في هذا الكونِ الفسيح لا حولَ لها ولا قوة إلا بالله، ومع هذا فأنا كمعظمِ البشرِـــ تهزمُني الأنا الكامنةُ في أعماقي، وتشـــعرني بالعظمة، وبحب الذاتِ والغطرسة.

سألني مرافقي الذي تعرفتُ عليه في إحدى رحلاتي السابقة، والذي يزورُ من حينٍ لآخر أخته القاطنة بسوريا قائلا باهتمام :

- أتشعرَ بالخوف من ركوب الطائرة ؟ إنِّي أراكَ شاردَ الذِّهنِ .

- بل أشـعرُ بالضـعف من هنا، كلُّ شيءٍ في الأسـفل يبدو صـغيراً وتافهًا مثلي تماما .

- سـبحانَ الله ! ما أعظمكَ إنَّكَ على كلِّ شيء قدير! يا أخي سـبِّح اللهَ ولا تصفْ نفسكَ بالتفاهة، ففي خلقك حكمةٌ ومعجزة من معجزات الله. انظر إلى عينيكَ كيف تريان، انظر إلى سمعكَ، وباقي حواسكَ كيف تشتغلُ، انظر إلى جسدكَ الذي يشبه في تكوينه التراب والذي يصبح تراباً بعدَ الموت، قال الحكيم العليم " خلق الإنســانَ من صــلصــالٍ كالفخار ". فكِّر في روحكَ كيف تحزن، وتفرح، وتتألم، وتحب، وتكره، إنِّها أمورٌ عظيمة يا صاحبي، لا تحتقرها، فإنَّ الله لا يستحي أن يضربَ مثلًا ما بعوضة فما فوقها، فكيف تُقلل أنتَ من شأنكَ ؟

صمتَ مرافقي، واتكأ على كرسي الطائرة، وأغمضَ عينيه، اقتنصتُ فرصةَ ركونه إلى الراحة، وسـحبتُ رسـالة حنين من جيبِ قميصيـ كان الظرفُ ثقيلًا يضمُّ رزمة أوراق. فتحتُه بهدوء، فانبعثَ منه عطرٌ لذيذٌ أنعشَ روحي، سحبتُ الأوراقَ ببطءٍ، ورحتُ ألتهمُ السطورَ بعيني ووجداني.

(إليك منـير:

لم أســتطعْ أنْ أقيّدَ قلمي، وخلجات نفسيــ بعد أن ســمعتُ كلماتك النابية التي جرحتْ قلبي بقوة، حينها تيقَنتُ أنَّ أوان البوحِ قد حانَ لأخبرَكَ عن جزء من ذكرياتي ورحلاتي الغامضــة التي جعلتني في نظركَ فتاة من دونِ أخلاقٍ ولا ضمير...

في أحد الأيام، ســمعتُكَ تطلبُ من أختكَ قطعَ علاقتها بي، لا لذنب اقترفتُه كما ادعيتَ، وإنَّما لشكك في تصرفاتي وفي أخلاقي، يومها أخبرتُ منيرة عن رؤيتكَ لي متأبطةً ذراعَ شــابٍ أجنبي على شــاطئ كتامة، ذلك المكانُ الهادئ الذي يرتاده العُشَّاقُ هرباً من عيون الفضوليين.

اعلم يا منير أنكَ لو ســألتني عن حقيقة الشــابِ الأجنبي الذي رأيتَه برفقتي لأجبتك : " إنه أخي "، ولو أنَّكَ ســألتني عن سرِ رحلاتي المُريبة لأجبتُكَ :" بحثًا عن جدتي" . قد تُصابُ بالدهشة، ولكنها الحقيقة التي سأوضحها لكَ بكلِّ صدق، سأعرضُ عليكَ على هذه الصفحات مقتطفات من ذكريات امرأة من غير تعديلٍ لأوضّــحَ لكَ صــورةً عني خفية عنكَ، هذه الذكرياتُ ما هي إلا جزءٌ من تاريخِ امرأة كانتْ ذات يوم مُجاهدةً ضــمن صــفوف جبهة التحريرِ الوطني ضــد الغزوِ الفرنسيـ دونها بعدَ الاســتقلال، كاتب صــحفي كان ينوي كتابتها في شكل رواية، إلا أنَّ إصابته بمرض عضال حالَ دونَ ذلك، فتركَ لعائلة البطلةِ رؤوسَ أقلامه آملًا في أن تجدَ مَنْ يصونها ويخلّدها على صفحات التاريخ ..

منير.. إليكَ الحكاية... ويا لها من حكاية !

في إحدى القرى القريبة من مدينة القل، كانتْ تعيشُ عائلةٌ فقيرة تتكون من الأم والأب وابنتهما الوحيدة ســعدية، أحبتْ ســعدية ابن عمها إبراهيم حباً عميقا وطاهرا، وتمنته زوجًا لها. كان جميعُ أهلِ القرية يباركون

حبهما، ويِ ينتظرون الوقتَ المناسـب لقطف ثمرته بتزويجهما، إلا أنَّ جشـعَ والد الفتاة حالَ دون ذلك، فباعها بثمنٍ بخسٍ إلى رجل فظٍ من غير مبادئ في يوم مُثلج شديد البرودةِ كمشاعره..

في ليلة ذلك اليومِ الكئيب، و خلفَ النافذة الصـغيرة والوحيدة للكوخ القائم بين شجيرات الزيتون و الرمان، قبعتْ الشَّابةُ الحزينة في فراشها، وراحتْ تتأملُ على ضوء القمر ذلك البياض الذي غطَّى سطوحَ المنازلِ والأكواخ وأغصان الشجيرات الصغيرة، وانتشر بساطًا فضِّي اللونِ على الحقول الشاسعة المترامية الأطراف، وهى تُفكرَ في حبيبها إبراهيم، لقد راحتْ تتصـوره حزينًا يهفو إليها بعينينِ متألمتين، أما هى فلم تعدْ تحلمُ بشيـء، لقد قُضيَ الأمرُ، أحيانا كانتْ تفكر في الهرب من المنزل بعيدا.. بعيدًا لكن الفَكرة سَرعَانَ ما كانتْ تتلاشى من ذهنها، فهى لا تعرفُ من المناطق سـوى قريتها، ومن البشر سـوى أهلها وعشـيرتها، فضـلًا على أن والدها منعها من الخروج من البيت كي لا تلتقي بفارسِ أحلامها، أحسَّـتْ باليأس والحزن. لقد انتهتْ حياتُها كإنسـانٍ يحلم، ويشتهي، ويتمنى، ويفكر، وبدأت حياتَها كعصفورٍ سجين في قفص صنعه ظلمٍ والدها وجشعه قد لا تجدِ مخرجًا منه، لم تعد السماء بالنسبة لها سماء، ولا الشَمس شمساً، ولا البحرُ بحراً ..لكنْ بقي إيمانُها بالله تعالى ساطعًا في حياتِها، فكانتْ تتضرعُ إلى الله في كل وقتٍ أن يغمرها برحمته الواسعة.

تزوجتْ سعدية ممَنْ رضي به قدرُها. أما إبراهيم فقد صعدَ إلى الجبل ليجاهدَ في سـبيل الله والوَطن ضـد الاحتلال الفرنسيـ وهو يحملُ في داخله أشتاتَ إنسانٍ، وبقايا ذكرياتِ حزينة.

واسـتمرتْ الثورةُ الجزائريـة محققـةً انتصـاراتٍ وبطولاتٍ خيـاليـة وأسـطورية، و في خضَـمِ الأحداث السـاخنة، أنجبتْ سـعدية مولودة جميلة أسـمتها خديجة، أضاءتْ حياتَها نورًا، وأنسـتها قليلًا من الشَّجن المحتومِ، لكن قسوةَ زوجِها كانتْ تُؤرقُ نومَها، وتُشعلُ الثورةَ في داخلها، ألم يكن المُتسببَ في

القبض على خالها المجاهد حين جاء خلسةً إلى منزلها ؟ كم ترجته ألا يخبرَ أحدًا بالأمرِ، ووعدها لكنه نقض الوعدَ، ففوجئ المجاهدُ المسكينُ على بُعد عدة أمتارٍ من البيت و سُجِنَ بعدَها وعُذِّبَ حتى الاستشهاد، قاستْ سعدية كثيراً من عقاب زوجِها، كان يضربُها يوميا لتخبره عن أسرار الثوار؛ لينالَ رضا المستَعمر. بادئ الأمرِ لم تكنْ تعلمُ أنَّه كان يعملُ جاسوسا لحسابِ العدو، لكن بعد انتشارِ الخبر بين أهالي المنطقة، وقيامه بتسليح نفسه حمايةً لها من أيِّ تصفية مُحتملة فهمتْ كلَّ شيءٍ، وانسكبتْ القطرةُ التي أفاضتْ الكأسَ فقررتْ أمراً ما..

ذات ليلة نهضتْ من فراشها، وهي تحاولُ ألا تصدرَ أيَّ صوت من شأنه إيقاظ زوجها الَذي كان يُصدرَ شخيراً مُزعجا، كان ضوء القمر يمتدُ إلى الداخلِ عبرَ النافذة الصغيرة منيراً غرفة أو قل جُحرَ النوم، نظرتْ إلى ابنتها خديجة، وهي تغطُّ في نوم هادئ جدا. قبّلتها فتنفستْ الرضيعةُ بعمق، أحستْ سعدية بقلبها ينبضُ بشدة، قبّلتها ثانية، أحستْ بالشوقِ إليها قد بدأ يُلهبُ صدرَها قبلَ الأوان، ترددتْ في تنفيذ خُطتها، لكن عندما نظرتْ مرّةً أخرى إلى زوجها أحسّتْ بالتقزز يملأها فحدثتْ نفسَها قائلةً " علىّ بالفرار أو الانتحار أو الجنون ..لم أعدْ أطيق كل هذا الألمِ .. لم أعد قادرة على التحملِ أكثر... ".

ألقتْ نظرةً أخيرة على ابنتها، أمسكتْ أناملها الصغيرة بين يديها، وراحتْ تُداعبها بحنانٍ كبير، فأحسّتْ بالشفقة عليها، لكنها استدارتْ فجأةً و بسرعة، وقبل أنْ تحسّ بالضعف وتلغي الفكرةَ التي ستوصلها إلى الحرية، حملتْ بندقية زوجِها في هدوء، وسارتْ على أطراف أصابعها، فتحتْ بابَ الكوخِ بحذر، سمعتْ صوتًا خلفها، فتوقفتْ مرتجفةً دون أن تستدير، ولما طرق سمعَها شخيرُ زوجِها من جديد خرجتْ بسرعة، وأغلقتْ البابَ خلفها.

سارتْ بخطى سريعة مبتعدةً عن الكوخ، وقلبُها ينزف دماً لفراق خديجة، دقيقةٌ بعدَ أخرى كانت دقاتُ قلبِها تزداد خفقانًا من شدة الخوف،

وسرعة خطواتها تقلُّ من فرط التعب.. من حينٍ لآخرَ كانت تتعثرُ فتسقطُ أرضا، ثم تقفُ لتواصلَ السير من جديد نحو جبل قرن عيشة حيثُ كانتْ تأملُ أن تلتقي بمجاهدي المنطقة هناك، برودةُ صباح ذلك اليوم الربيعي من شهر مارس ما فتئت تجمِّدُ أطرافَها، ولدفع مشاعر الوحدة والخوف راحتْ تُرددُ بصوت منخفض أغاني بدوية عن أزهار مارس لترفعَ معنوياتها، تلك الأغنيةُ التي كانت جميعُ فتيات ونساء القرية يغنينها في المرج الأخضرِ المقابل لشجرة الزيتون الضخمة " أصالة ". فعند حلول الربيع، كانت كلُّ واحدة منهن تحضر كسرةً من التمر المعجون ودقيق القمح وتملأ جرّتها باللبن، وتحملها إلى ذلك المكان الرائع، ثم يمضين النَّهار كلَّه في اللهو والغناء والمرح على وقع موسيقى العصافير التي كانت تجتمعُ أعلى أصالة، وهى تنظر إليهن وكأنها كانت تشاركُ مهرجاناتهن الشعبية بسعادةٍ ومرح، وتحت النظراتِ الخفية لشبّان القرية الراغبين في الزواج .

أشعة الشمسِ الأولى راحتْ تخترق أغصانَ الأشجار منيرةً طريقها، أصبحتْ خطواتُها أقلَّ سرعة من شدة التعب، اتكأتْ إلى جذع شجرة صنوبر وهى تلهث بشدة، راحتْ تتخيلُ ماذا سيحدث بعد فرارِها من البيت، فرأتْ زوجَها يُطاردها من كل جهة، وهو يُطلق زئيراً مخيفًا، وعندما وضع يديه على رقبتِها محاولًا كتمَ أنفاسها، استيقظتْ مذعورةً، لقد كانتْ تحلم، أحسَّتْ بالدفء يسري في عظامها،نظرتْ إلى الأفق،كانت الشمسُ قد أرسلتْ بسخاء كبير رسلَها إلى البسيطة لتدفئ البؤساء الذين قضوا ليلتهم مثلها تحت سقفَ السماء، حملتْ البندقية على ظهرها، وواصلتْ المسير،وعندما وصلتْ إلى وادٍ صغير، رفعتْ جبتها الطويلة التي كان قماشها البالي قد تمزَّقَ داخلَ أحراشِ الغابة، قطعته وهى تحاولُ الحفاظَ على توازن جسدها المنهك، كانت مياهُ الوادي باردةً جدا، فحاولتْ الإسراع في خطواتها لكنها أحسّتْ بألمٍ في قدميها، لقد كانتا تنزفان دمًا من كثرة الأشواك التي انغرستْ فيهما، ورغمَ ذلك كانت تُحسَّ لحظتها أنَّ الدنيا كلها صارتْ طوعَ أناملِها، وأنَّ العالمَ الضيقَ الذي فرضه

عليها والدُها أصبح عالمًا جميلا ومتسعا، واصلتْ سيرَها إلى أن وصلتْ إلى تلٍ صغير، أحستْ بحركة خلفَ الأشجار فكانتْ كلما توقفتْ، توقفتْ الحركةُ، وكلما سارت، عاود الصوت الولوج إلى مسامعِها، ومن شدة خوفِها، توقفتْ وصاحتْ :

- مَنْ هناك ؟

فجأةً ظهر رجلٌ من خلف الأشجارِ، وهو يصوَب بندقيته نحوها وسألها:

- مَنْ أنتِ ؟ لماذا أتيتِ إلى هنا ؟

قالتْ بفزعٍ :

- أختُكَ .

- ومِنْ أين أتيتِ ؟

وقبل أن تجيبه، تمعنتْ وجهَه بدقة، وما إن عرفته حتى أطلقت تنهيدة طويلة، لقد وصلتْ إلى بر الأمان.

واصل الرجل أسئلته:

- ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ هيا أجيبي.

- ألم تعرفني يا سي الحسين ؟ أنا سعدية بنت مسعود.

تهللَ وجهُه فرحًا وقال، وهو يُخفض فوهة بندقيته :

- فعلا ! فعلا !المعذرة !لم أعرفك، لقد تغيرتِ كثيراً، كم أصبحت هزيلة ! ماذا حدث لكَ ؟

- آه يا أخي، سأقصّ عليكَ كلَّ شيءٍ لاحقا، أريدُ أن أنضمَ إليكم.

قال متسائلا وعلاماتُ الدهشة تلوحُ على وجهه الأسمر الوسيم :

- تنضمين إلينا ؟

- نعم.

صَمَتَ برهةً، ثم سألها وكأنه يتذكَّرَ أمرًا هاما:

- ماذا تحملين خلفك ؟ طعاما ؟

أظهرت بندقية زوجها، فصاح قائلا:

- من أين لك هذا ؟

قالت :

- كانت لزوجـي، والآن هى لكـم.

نظر إليها، وفي عينيه آلافُ الأسئلة، لكنه لم ينبس بكلمةٍ واحدة.

في تلك الأثناء، خرج مجاهدُ آخر من خلف الأشجار.خاطبه سي الحسين قائلا:

- سي العربي، تولَ أمرَ الحِراسة.

صمت سي الحسين برهةً، ثم خاطب سعدية قائلا:

- هيا، تعالي يا أختي، اتبعيني .

*****

تبعتْ سعدية مرافقها سي الحسين وهو يدخل إلى كهف واسع، وبعد أن تمكنت من طرد بقايا أشـعة الشـمس من عينيها،أبصرتْ عددًا من المجاهدين

جالسين القرفصاء على شكل حلقة، وهم يناقشون أمرًا ما يبدو مهما من حركات وجوههم.

نظرتْ إليهم واحدا واحدا، كانوا متلهفين إلى سماع قصتها، راحتْ تحكي وتحكي دون أن تتوقف، لأول مرة منذُ زواجها وجدت من يستمع إلى آلامها وعندما أفرغتْ ما بداخلها، أحسَّتْ براحة كبيرة تغمرها، إلا أنَّها أجهشتْ بالبكاء عدة مرات عندما حدثتهم عن خالها الذي مات مُعلقًا على باب المحتشد، لقد رحمه الموتُ فأخذه معه في الوقت الذي لم يرحمه زوجها ولا أعداؤها، استندتْ إلى جدار الكهف والدموعُ تنزلُ من عينيها طوفانًا، وحنينُها إلى ابنتها خديجة يزدادُ شيئًا فشيئا، وشوقُها إليها يتحوّل إلى بركانٍ ثائر، وقالت تُحدِّث ابنتها الغائبة في سرها " متى ألتقي بك يا فلذة كبدي، يا قلبي ويا روحي، هل سأستشهدُ قبلَ ذلك، أم أنَّ العنايَة الإلهية ستمنُّ علينا باللقاء والفرح ؟". أغمضتْ عينيها على حلمٍ شائقٍ ورائع، ثم واصلتْ كلامَها بصوتٍ خافت "إليك يا ربِّي مددتُ يدي، فاكفني شرّ زوجي وأعدائي، ارحمني يا صابغَ النعم، واستجبْ لرجائي، يا رب .. ".

قاومتْ سعدية الاحتلالَ بكلِّ ما استطاعت من قوة، اقتصرتْ مهمتها بادئ الأمر في تضميد الجراح، وترقيع وغسلِ الثياب، وتجهيز الطعام ثم تعلَّمتْ بعدَها كيفية استعمال السلاح لتدافعَ عن أرضها ودينها وشعبِها إلى أن انتزعتْ الجزائرُ استقلالَها في اليوم الخامس من شهر جويلية من عام ألف وتسعمائة واثنين وستين .

بعد أربع سنوات من الغياب، وصلتْ سعدية إلى مشارف قريتها الصغيرة، لقد غادرتْ المنطقة في فصل الربيع، وعادتْ إليها في نفس الفصل بعد أن قضت شهورًا عديدة في مستشفى بالعاصمة للعلاج من إصابةٍ خطيرة وقعتْ لها قبل الاستقلال مباشرة حالتْ بينها وبين الاحتفال بالنصر مع أهلها، وقفتْ تتأملُ القرية الصغيرة الراقدة مثل الأميرة النائمة بين ربوعِ التلال وهي

مُزيّنة بـ سلا سلَ من أ شجارِ الزيتون العالية، من هناك أبـ صرتْ بأ صالة وهى لا تزالُ شامخةً تعانقُ السماءَ بنصرٍ وافتخار، فكَبُرَ حلمُها واقترب أكثر، فعمَّ قريبٍ سترى وحيدتها.. انتشلها مرافقُها صالح من هواجسِها قائلًا :

- ها قد وصلنا، يمكنني الانصرافُ الآن .

لم تلحْ عليه بالبقاء، قد لا تجد مكانًا لاستضافته خصوصًا وأنَّها لا تعرفُ شيئًا عمَّ آلت إليه أمورُ عائلتها، فقد انقطعتْ أخبارُهم عنها منذُ أكثر من سنةٍ كاملة.. شكرتْ صالح على مرافقتِه لها وودَّعته قائلةً :

- اذهبْ في أمان اللهِ، أتمنى لكَ التوفيق .

حيّاها بحرارة، واستدار مغادرًا المكان.

واصـــلتْ الســـيرَ وهى تحسّ وكأنَّ جناحي الحرية كانتا تحملانها نحوَ منزل عائلتها، عند وصـــولها إلى حوش الكوخ، ابتســـمتْ بســـعادة كبيرة، لقد تيقنتْ أ نَّ كلَّ شيء لا يزالُ ينبضُ بالحياة، فملابس والدتها القديمة قد نُشرـــت على حبالٍ رُبطت إلى أوتادٍ لم يغيرِ مكانها الزمنُ منذُ مدة طويلة، والأواني الطينية قد غُسـلت ووضـعتَ فوقَ قطعة من القماش النظيفَ بمواجهة أشـعة الشمسِ كي تجفَّ، والدجاجات البيضاء راحتْ تنقرُ الأرضَ رفقة صغارِها بمرح، وقطةٌ هناك إلى اليسار كانتْ تتناولُ بنهمٍ بقايا طعام ..

أسرعتْ إلى الداخل، رأتْ والدتها ساجدةً تُصلي لله، ودَّت الارتماء عليها ومعانقتها، لكنَّها بقيتْ جامدةً تتأملها بـشوق وحنينٍ ولهفة وهى غارقةٌ في تلك اللحظات المقدسة، لقد غزا الشيبُ شعرَها، وأخفتْ الشيخوخة معالمَ الجمالِ عن وجهها، أنهتْ الأمُ صـلاتها، ورفعتْ سـجادتها دون أن تلحظَ وجودَ ابنتِها، وما إن أحسّتْ بحركة خلفها حتى استدارت سائلةً :

- مَنْ هناك ؟.

ظنتْ سـعدية أنَّ العمى قد زحفَ إلى عيني والدتها الزرقاوتين، إلا أنَّ هذه الأخيرة صاحتْ فجأةً :

- مَنْ ؟ سعدية ؟ مستحيل! سعدية حية ! ابنتي حية !

- نعم يا أمي، أنا سعدية، لقد عدت، لم أمت، هذه أنا، إنني حية أُرزَقُ.

بعد عناق الشـوقِ وكلمات الحنين واللقاء، جلسـتْ المرأتان على بسـاط قديم ممزّقٍ ، راحتْ الأم تتأملُ ابنتها بتعجبٍ وهى تقول :

- وصـلتنا أخبارُ مفادها أنَّكِ اسـتشـهدتِ.. حمدًا لله، لم يكن ذلك صحيحا.

راحتْ سـعدية تقصُّ على والدتها كيف أنها سـقطت رُفقة رفاقها في كمين نصـبه الأعداءُ بجبال البابور قبلَ سـتة شـهور فقط من الاسـتقلال. لقد نجا جميعُ الرفاقِ ماعدا زميلة لها كانت داخلَ الملجأ الذي ردمه الأعداءَ بقذيفة مدفعٍ، أما هى فقد أُصيبتْ بجروحٍ بالغة الخطورة، حملها رفاقُها وهربوا بعيدًا بحثًا عن مكانٍ آمن، مشـوا طويلا إلى أنْ وصـلوا إلى منطقة مأهولة تلقتْ من سكانها رعايةً كبيرة، بعدها نُقلَتْ إلى عيادة سرية تقع بالجزائر العاصمة، وبعد الخامس من جويلية واصلتْ العلاج في مستشفى العاصمة.

صـمتتْ برهةً ثم باغتتْ والدتها بالسـؤال الذي ما فتئ يُقلقُها منذُ سنوات :

- كيف هى خديجة ؟ هل هى بخير؟ أين هى ؟ أريدُ أن أراها..

هل هى مع والدها ؟ أنتِ تعلمين أنِّي لا أستطيع الذهاب إلى...

أجابتها والدتُها بقلقٍ مفضوح:

- ارتاحي قليلا، ســـأخبرك فيما بعد عن جميع أخبارها، أظنُّكِ جائعةً سأجلبُ لكِ طعاما.

- لكن ..

غادرتْ الأم المكانَ دونَ أن تســـتديرَ خلفَها وطالَ غيابُها، ولما همّت سعدية بالخروج للبحث عنها فوجئت بها تدخل الكوخ رفقة أخيها أحمد الذي قال، وهو يعانقُها بحرارة :

- أختي، حمدا لله على ســـلامتك، لم أصـــدق والدتي، ظننتُ أنَّ حزنها الشديد قد عبثَ بعقلها.

- أما أنا فقد عرفتُ أنَّكَ لا تزالُ حيّا من مجاهد كان زميلا لكَ في الكفاح المسلح، والذي كان يتلقى العلاج بالمستشفى الذي كنتُ أعالَجُ فيه...

- من هو؟

- شخص يدعى سي العربي، لكن اسمه الحقيقي هو سي المختار.

- نعم. تذكرته، كم هو جميلٌ أن نعرفَ أن الأشخاص الذين جاهدنا إلى جانبهم لا يزالون أحياءَ !

بعد فترةِ صمتٍ، واصلتْ حديثَها متسائلةً بلهفةٍ :

- أخبرني يا أخي عن ابنتي، أظنَّ أن والدتي تُخفي عنِّي أمرَا ما، فما أنْ ســـألتها عنها حتى فرت إلى خار ج الكوخ، أظنَّ أنها لا تزال مع والدها أليس كذلك ؟

لم يجبها وإنما راح يتأملها بقلقٍ، ولم تكن غبية، فقد فهمتْ كلَّ شيء، فصاحتْ بانزعاج :

- ماتتْ، أليس كذلك ؟

أخذها بين ذراعيه في هدوء، في حين راحتْ تُذرف دموعًا ســـخية، كان هدفُها في الحياة تحقيقَ الاســـتقلال ولقاء ابنتها خديجة، لكن بعد أن علمتْ بوفاتها لم تعد الحياةُ تعني لها شـــيئا، ســـقطتْ طريحةَ الفراش لا تقوى على التفكير ولا على الحركة، أحسّـــتْ بذنب كبيرٍ اتجاه ابنتها، بَقيتْ طيلةَ الوقت تُردد " أنا من قتلها، أنا من قتل ابنتي، تركتها رضـــيعة .. ضـــعيفة، لو توقعتُ آنذاك ما يمكن أن يحدثَ لها لما صعدتُ إلى الجبل .. ابنتي .. ابنتي .."

ومرة أخرى لم تعد الســماء بالنســبة لها ســماءَ ولا الشــمسُ شــمسًــا ولا البحرُ بحرًا... فقد صار كلُّ شيءٍ في حياتنا أسودًا وقاتما.

ولما طال مرضُــها، نقلها أخوها إلى مســتشــفى ســكيكدة. وطيلة مكوثِها هناك جاءها العديدُ من رفاقِ النضال لمواساتها والتخفيف عنها، كانت تحس بالســـعادة عند رؤيتهم، ثم ما تلبثُ أن تغرقَ من جديدَ في متاهة من الأسى بمجرد مغادرتِهم لها..

ظلَّ الحزنُ الأسود يلازمها بكلِّ قوة، والإحساسُ بالذنب يُطوقها، والحلمُ الأبيض راح يخبو في مقلتين كانتا يومًا مُكحلتين بحلمٍ كبير... وطيلة بقائِها في المســتشــفى، تلقتْ علاجًا مكثفا على يد طبيب ســوري شــاب أمدَها بالعطف والرعاية، بادئ الأمرِ أحسّ بالشـــفقة نحوها حين علم بقصـــتها، بعدها تحوّلَ الاهتمام إلى إعجاب، لن تنسى مطلقًا ما قاله لها يوما:

- أنتِ بطلةٌ يا ســـعدية، تركتِ ابنتك الرضـــيعة لتدافعي عن وطنك ولذلك اعتبريها شهيدةً من شهداء الوطن، إنَّها الآنَ ملاكٌ سعيدٌ في رعاية الله، فلا تحزني .

وكانت تلك الكلماتُ كافيةً لإنقاذ الحلمِ في عينيها، كانت حبلُ نجاة من بحر لجي مُضطرب بأحاسيسٍ مفزعة، كانت بلسمًا لروحها المريضة، وكانت بدايةَ الاستجابةِ للدواء والشفاء .

*****

كانتْ منهمكةً في جمع لوازمها لمغادرة المستشفى حينَ جاءها صوتُ الطبيب الشاب من خلفها قائلًا:

- هاه ! سيدتي، ستتركيننا.

استدارتْ مبتسمةً، وهى تقول شاكرةً له على كل ما بذله من أجلها.

- شكرا لك سيدي، لن أنسى وقوفَكَ إلى جانبي.

- كل ما قمتُ به اتجاهك لا يتعدى واجبي، الطبيبُ الماهر يا سيدتي هو من يبذل قَصَارى جهده لإنقاذ مريضه، فهناك أمراضٌ لا يمكنُ معالجتها بتناول الدواء فقط بل بتقويةِ إرادةِ البقاءِ والشفاء لدى المريض .

نظرتْ نحوَه بتمعنٍ، همَّتْ بطرح سؤالٍ ما فتئ يُلهبُ شفتيها لكن التردد ألجمها، قرأ الطبيبُ مشاعرها على ملامحِ وجهها فبادرها بالسؤالِ، وهو يبتسم بطيبة :

- أرى كلامًا مستترًا خلفَ نظراتِكِ، أفصحي ولا تترددي، ما الذي يشغلُ بالك؟

ردَّتْ بخجلٍ :

- ما الذي أتى بكَ إلى الجزائر؟

نظر إليها بتعجبٍ كمن لم يكنْ ينتظر مثل هذا السؤال وأجابها قائلًا:

- إنها قصةٌ طويلة سيدتي، لكن لا بأس سأخبرُكِ عنها بإيجاز.

جلس إلى جوارها، وبعد لحظةِ صمتٍ تخللتها تنهيدةٌ عميقةٌ قال :

- طالما حدثني والدي في صغري عن الشيخ المقاوم الأسطورة الأمير عبد القادر. فأُغرمتُ ببطولاته وشـــجاعته،وتمنيتُ أن أزورِ هذا الوطنَ، ترعرعتْ الفكرةُ، ونمتْ بسرـعة في داخلي، ولما كبرتُ وصرتُ طبيبا قررتُ أن أكرس حياتي لخدمة القضيةِ الجزائريةِ، فتنقلتُ إلى تونس، واتصلتُ بفدائي جزائري كان يزور هذا البلدَ من حينٍ لآخر لجلب الأسلحةِ، فنقلني معه في رحلةٍ شاقة وخطيرة إلى هنا.

صمتَ قليلا ليستردَّ أنفاسَه، ثم استطرد قائلًا :

- هنا، بدأتُ ممارســةَ نشــاطي الطبي رفقة فرقةٍ من المجاهدين علىِ مســتوى جبال ســكيكدة، تنقلتُ بعدها من جبل إلى آخر، ومن مركز إلى لآخر وســط زخَّات الرصــاص ورائحة البارود، وتعرفتُ خلالها على عددٍ هائلٍ من المجاهدين والمجاهدات، واســتمعتُ إلى قصــص مؤثرة عن الجهاد،وعشــقتُ جمالَ هذا البلد الرائع،وتمنيتُ له تحقيق الانتصــار، وبعد الاســتقلال مباشرة عدتُ إلى هذه المدينةِ التي بدأتُ بها نشاطي الكفاحي لأعملَ فيها كطبيب.

- والآن، هل ترغب في العودة إلى سوريا ؟

أجاب بكثيرٍ من الحنينِ وبصوتٍ أحن :

- نعم .. سأعودُ بعدَ ستةِ أشهر؛ اشتقتُ كثيراً إلى دمشقَ المدينة التي ترعرعتُ وكبرتُ فيها ، إلى أهلي ، إلى بيتي ، إلى ســوق الحميدية ، إلى الجامع الأموي ، إلى ساحة المرجة.

سكتَ عن الكلام قليلا، ثم واصل حديثه متسائلًا:

- وهل تسمحين بأن أسألك بدوري ؟

- تفضَّل.

قال ببساطة وبريقٌ وهَّاجٌ ينبعثُ من عينيه :

- نظرًا لكونك ستغادرين المستشفى اليومَ وربما لن أراكِ بعدها أبدا، هل تقبلينني زوجًا لكِ ؟

تسمَّرتْ في مكانها دون أن تنبسَ بأيِّ كلمة من فرطِ دهشتها، وللمرة الأولى لم تقوَ على النظر إلى عينيه الجميلتين، هل كان ذلك خوفًا من الوقوع في حبه وقبوله زوجًا ؟ أم وفاء لذكرى إبراهيم الذي عاد بقوة في تلك اللحظة إلى ذاكرتها دونَ استئذان ؟ أم لأنَّ محدثها كان شابًا ولم يسبقْ له الزواجُ بعد ؟ أم لأنَّها كانت تظنَّ بأنها لا تزال على ذمة زوجها محمود ؟ أم لأمورٍ أخرى أقل أهمية تنقلتْ متزاحمةً في تلك اللحظة ما بين عضوين متنافرين من جسدها، عقلها وقلبها ؟

ولما طال سكوتُها، قال بصوتٍ منخفض :

- أراك صامتةً، هاه ما رأيك ؟

وبعد صراعٍ رهيبٍ مع النفس لم تدرِ كم طالتْ مدتُه، قالت بارتباكٍ وبصوتٍ متقطع، وبكلمات غير متماسكة:

- لكني لا أزالُ على ذمة الرجلِ الذي تزوجتُ به قبل انضمامي إلى الجبهة.

قال بسعادة:

- إذن أنت تجهلين أن زوجَكِ طلقكِ قبل زواجه الثاني لأن زوجته الحالية اشترطتْ عليه ذلك.

ولما رأى الحيرة مرتسمةً على قسماتِ وجهها واصل حديثه قائلا:

- هذا ما أخبرني به أخوك أحمد عند زيارته الأخيرة لك، فعندما حدثته عن رغبتي في الزواج منك وافق على ذلك بشرط رضاك. فما رأيك ؟

ولأول مرة منذُ فراقها لإبراهيم أحسَّت بشعور لذيذ يدغدغ قلبَها، لكنها حاولت تجاهله، راحتْ تحدِّث نفسها قائلة" هل سأقبلُ بهَ زوجًا؟ هل سأرفضُ طلبه ؟ الحقيقة أنِّي أحسَّ بحيرة كبيرة، كيف أتزوجه وهو الشـــاب المتعلم وأنا المرأةُ الأميّةُ التي لا تعرف حتىَ كتابة اسـمها؟ الفرقُ شـاسـعٌ بيننا، سـأتزوجه وأذهب معه إلى بلده كي أنسىـ همومي وذكرياتي التعيسـة، وإبراهيم ... كيف أنسىـ ذكراه؟ سـيكون ذلك إجحافًا في حق الحبِ التي شـعرتْ به نحوه فيما مضىـ والآنَ ألا أ زال أحبه؟ لسـت أدري؟ ليس من الحكمة أن أحب شـخصًـا اسـتشـهدَ منذُ سـنتين، لكنه لا يزال حيا في قلبي؟هل هذهَ هى الحقيقة؟ إذن لماذا أحسـسـتُ بالرعشـة تُحرك كياني تحتَ نظرات الطبيب؟ سـأتزوجه ..لا لن أتزوجه، يا رب ساعدني، سأتزوجه وسأنجب أولادًا أعوض بهم ابنتي خديجة...".

نهضتْ من مكانها،واتجهتْ نحوَ نافذة الغرفة، وآلاف الأسئلة والأجوبة تتدافع إلى ذهنها الحائر والمتألم " هل أحببتُ الطبيب الشـــاب؟ إنَّه مهذَّبٌ وحنون، وسـأعيشُ برفقته سـعيدةً، لن ينغصَ حياتي سـوى بقايا ذكريات لن تموتَ أبدًا.. هل سـأنسـاها في غمرةِ انشـغالي بالحياة وسرعة دوران عجلات الزمن؟ لستُ أدري، لست أدري .. "

في تلك اللحظات راحتْ تراقبُ عصفورًا كان يقفزُ من غصنٍ إلى غصن فوق الشـجرة المقابلة للشرفة، وللمرة الأولى منذُ دخولها إلى المسـتشـفى رأتْ أزهارًا بيضـاء اللون تكسـو الأغصـان، أحسّـتْ بالربيع يدخل إلى قلبها، وهى تتأمل العُشَّ الصغير، لا ريبَ أنَّه يحضنُ بيضًا كثيرًا ينتظرُ موعدَ خروجِ كائناتٍ تعجُّ بالحياةِ ..

فاجأها صوتُ الطبيبِ من خلفها قائلا:

- هاه سعدية، ما رأيك ؟

استدارتْ الشابة بسرعة نحوَه دونَ أن تتمكنَ من الكلام.

- قولي نعم أو لا، لا أقل ولا أكثر ..

- يجبُ أن تعرفَ شيئًا مهما عنِّي قبل أن تعرفَ الجوابَ.

- ما هو ؟

- أنا امرأةٌ أميّة، لن أشرَفَكَ أبدًا بين أهلكَ.

قال وهو يبتسمُ بحنان :

- بطولتُكِ وأخلاقُكِ أرقى من شهادتي.

أحسَّتْ برعشة شديدة تهزُها، نظراتُه الجميلة سكنتْ داخلَها، وأحيتْ قلبَها من جديد، سألها قائلا:

- هاه ما رأيك ؟

راحتْ كلماتُه الرقيقة تزرعَ الأزهار بين أغصان قلبها، وتُشعرها بأنوثتها بعد أن خاصمَها ذلك الإحساس عدة سنوات، حتى طيلة زواجها من محمود لم تحس أبدًا بأنَّها امرأة، كانت تُلبِي رغباتَه غصبًا عنها ودون إحساس، استدارتْ مرة أخرى نحو الشجرة المقابلة، رغبتْ أن تبني عُشًّا مثل عش العصفورِ الصغير المليء بالحبِ والأمل والحياة، وقبل أن تغيّرَ رأيَها استدارتْ بسرعة، ونظرتْ إلى عينيه بحنانٍ، وهى تبتسمُ قائلةً :

- حسنًا، كما تريد.

- إذن أنتِ موافقة، قولي نعم .. هيا قوليها.

- نعم.

أضاء وجهُه بنورٍ ساطعٍ من فرطِ الغبطةِ وصاح :

- حمدًا لله ، شكرًا لله.

وتزوجتْ سعدية من سعيد، وطار بها إلى دمشقَ، أما باقي الحكاية، ولكي لا تُصابَ بالملل فسألخِّصُها لك في هذه السطور.

أما إبراهيم فقد عاد بدوره إلى القرية الصغيرة مباشرةً بعد انتزاع الجزائر لحريتها، وعندما علم باستشهاد سعدية، ولمس الحالة المُزرية التي تعيشها ابنتها خديجة من فقرٍ وجوعٍ وإهمالٍ وقسوة زوجة والدها، خطفَ الفتاةَ دون أن يعلم بأمره أحدٌ، وجاء بها إلى منطقة زيامة منصورية، حيثُ عمل بستانيا لدى طبيبٍ من أصل فرنسي رفض الذهابَ إلى بلده بعد الاستقلال؛ لكونه عشق المنطقة وأهاليها، لكنه ذهب بعد سنواتٍ تاركًا منزله لإبراهيم؛ وفاءً له على إخلاصه في خدمته.

ظنَّ الجميعُ أن خديجة ماتتْ ، لقد كانت أمي، وإبراهيم هو جدي، وسعدية البطلة جدتي، عندما وُلدْتُ ، تُوفيت أمي إثرَ إصابتِها بنزيف دموي حاد فربّاني جدي إبراهيم، عاش المسكينُ حياةَ الرهبان مُضحيًا بسعادته على مذبح ذكرياته و آلامه كأنه بطلٌ من أبطال فيكتور هيجو، لكن البؤساءَ والحكماءَ والأبطالَ والمفقودين دومًا ما يكثرون في كل الحروب وبعدها، وليس في رواية البؤساء فقط .

بعد وفاة والدتي، هاجر والدي إلى ألمانيا، وتزوج هناك من ألمانية ولدتْ له ابنين، كان أحدهما ذلك الشاب الذي رأيتني برفقته يا منير ذاتَ يوم على شاطئ كتامة، فما أن عَلِمَ بوجودِ أختٍ له حتى جاءَ لزيارتي راغبًا في أخذي

معه، إلا أنِّي رفضتُ الفكرة رعايةً لمشاعرِ جدي المريض، وإكباراً لتضحياته، و أملًا في حُبِكَ يا منير.

لن أنسى مطلقًا يا منير تلك اللحظات السعيدة التي كان يُغدقها جدي علىّ، فخلال الأيام الممطرة،كان عادةً ما ينتظرَ خروجي من المدرسة وهو يحملُ مظلته، وعندما كان يراني،كان يُسرع نحوي ليقيني من قطرات المطر، ويمسكُ بيدي الصغيرة الباردة ويدسها داخلَ جيبِه، فأحس بالدفء يسري في شرايينها لينتقلَ إلى كافة جسدي ، وعندما كانت الطبيعةُ تُزهرُ في فصل الربيع، كنتُ كلما عدتُ إلى البيت، و جدتُ جدي ينتظرني وهو يحملُ باقةً من الورود الجميلة؛ ليقدمها إلىّ ضاحكًا وهو يقول" تفضَّلي يا وردتي الصغيرة " وكنتُ أمسكُ بها بسعادة لا مثيل لها.

كانت الحياةُ بالنسبة لي لا تتعدى جدي، ومدرستي، والمرج الأخضر المقابل لبيتنا، وشواطئ زيامة منصورية التي كانت تُقبل البحر ، وتعانق الجبالَ في سحرٍ وجمالٍ لا مثيل لهما، وكان العالم بالنسبة لي لا يتعدى هذه الحياة.

ومضت الساعاتُ بسرعة، يومًا بعد يوم كانتْ سنواتُ عمري تزداد إلى أنْ صرتُ شابةً تُحسّ أكثرَ بمتاعبِ الحياة، وتحاول أن تجدَ لنفسِها مكانًا تحتَ الشمس ..

ذاتَ يومٍ زارنا شيخٌ لم أكن أعرفه من قبل، حين رآني، عانقني بحرارة،وراح يتفحصني بتمعنٍ وإعجاب، وحين علمت أنَّه من أقاربي، سألتُ جدي بفضول:

- وهل عندي أقاربٌ غيرك ؟

لم يجبني، لكنه قدَّم لي رزمةَ الأوراقِ التي أهداها له قريبي المجهول.

بعد أنْ قرأتُ الذكريات، وعلمتُ بقصة أصلي كاملة، وعرفتُ أنَّ زائرَنا هو الشيخُ أحمد أخ جدتي سعدية، اقتربتُ من جدي إبراهيم وهو جالسٌ في حديقة البيت، نظرتُ إليه بحنانٍ وقلتُ له:

- شكرا جدي.

ومن خلف الدموعِ قال بحزن :

- كنتُ أودُّ أنْ أعرفَك على ماضيك عندما دعوتُ جدَك أحمد لزيارتي، لكنِّي عرفتُ أنا أيضا أن القدرَ قد حالَ بيني وبين جدتِك للمرة الثانية حين خطفت والدتك من بين أنياب الفقرِ والحرمان .

صَمَتَ برهةً ثم واصل حديثَه، وبريقٌ حنانٍ عظيمٍ ينسابُ من مقلتيه الطيبتين :

- حسنًا، أنتِ سعادتي يا ابنتي، ما مضى قد انتهى والمستقبل أمامك الآنَ يا صغيرتي.

قررتُ بعدها يا منير أن أبحثَ عن جدتي، ذهبتُ إلى دمشقَ إلا أنَّ رحلتي باءت بالفشل، فقد غيّرتْ سكنَها إلى القاهرة، واقتفيتُ أثرَها، وبعد جُهدٍ جهيد وصلتُ إلى منزلها بالجيزة، لكنَّها لم تكنْ هناك. أخبرني جيرانُها أنَّها غيّرَتْ العنوان، بحثتُ عنها في شوارع القاهرة القديمة، بالقرب من النيل وأمامَ ساحات المساجد العظيمة، لكنِّي لم أجدها في أي مكان، لطالما تساءلتُ أهى أسطورةٌ عادتْ من الماضي إلى الحاضر بدون " فيزا " ؟ أهى حلمٌ وخيال؟ أم هى واقعٌ ملموس وحقيقةٌ نيرة؟ أهى إنسانٌ ؟ أم هى طيفُ إنسانٍ لا يأبهُ بالزمانِ ولا بالمكان ؟

تلك هى حكايةُ أصلي وسبب رحلاتي إلى القاهرة ودمشقَ، لقد كنتُ أبحث عن تاريخي، عن الماضي والحاضر وعن أملٍ قد لا أعثرُ عليه مطلقًا،وعن

مســـتقبلٍ قد لا يتحققُ، كنتُ أبحث عن جدتي ســـعدية لأخبرَها عمَّا أخفته الأقدارُ عنها.

منير.. ألا تســـتحق كلُّ تلك البطولات قليلا من الجُهد والتضـــحية ؟ ألا تستحق جدتي أن أرتمي بين أحضانها وأبللَ يديها بدموع ذكرياتي؟... ألا تستحق أن أقبلَ الشجاعةَ والتضحيةَ على جبهتها الحبيبة ؟...

منير، أرجو الآن أن تعذرني، وأنْ تُغيِّرَ حُكمكَ على أخلاقي، فأنا لن أخونَ ثقةَ جدي الذي ربَّاني على الفضيلة والإيمان بالله، ولن أخونَ ثقتكَ بي.

أتمنى من صـميم قلبي أنْ تُحسِّـنَ سـلوكَ إكرامًا لأمك ولأبيك المريض، إكرامًا لكلِّ ما هو جميلٌ في الوجود، إكرامًا لمشاعري تجاهكَ.

أرجو أنْ تُقنعكَ توســلاتي رغم أنِّي أشــكُ في الأمر، لن أكذبكَ القول أنِّي شعرتُ بالحزن عندما لمستُ زيفَ مشاعرِكَ نحوي، ومع هذا أقولُ لكَ ببساطة وبصـــدق عميقٍ أنِّي معجبةٌ بكَ، ســـأدعو اللهَ تعالى ليبثَّ في نفســـكَ الراحةَ والهدوء؛ فالدعاء يا منير قد يُغيِّرَ القضاء، إنَّه سلاحي الوحيد.

حنـــين

*****

بعد أن خرجتُ من بين أســـطرِ حكايتي إلى زمنٍ آخر وحكاية أخرى، اخترقتُ الحروفَ من جديد، ورجعتُ بعدَ رحلةٍ طويلة من الماضي إلى حكايتي .. عدتُ إلى اليوم الثامن من تموز من عام ألفينِ وســـتة، عدتُ إلى حيثُ كنتُ جالسًا بين السّحبِ مواصلا رحلتي إلى سوريا، أحسستُ بانقباض قلبي، نوعٌ جديدٌ من الرعشـــة راح يهزّ كياني هزًا، فقد زال الغموضُ عن ذهني، بدتْ لي الحقيقة عاريةً من غيرتي وذكريات مراهقتي ومن وســـاوس الشـــيطانِ ومن

أخطاء نفسي- الأمّارة بالسوء،عادتْ إلى ذهني كلمات سندس"ستلتقي بفتاة تحبك وتحبها "

انبثق فجرَ جديدٌ مبددًا ظلامَ قلبي الحائر، وغامرًا أعماقي سعادةً وشوقا، وانطلق من داخلي خيطٌ روحانيٌ مقدسٌ يمدُّ الجسورَ بين السماء والأرض، بين القلب والقلب، بين الروح والروح، في لحظة قصيرة تكسّرتْ بقيةُ القيود، كلماتُ حنين مبحتْ أو هامَ الماضي، صحتُ في داخلي:" إنه الحب الحقيقي، حُبّ مثقلٌ بالبطولة والوفاء والصدق والصبر والسعادة واليأس و الألم أيضا، إنَّه الحُبّ الحقيقي، حبّ يحملُ في أحشائه شيئًا من تضحيات الجدة سعدية، من آلام والدتي ومن الثورة والإيمان، حُبّ ناضجٌ يحملُ كثيراً من الشجاعة ،والعفة، وينضح بالأمل .

ستكونين يا حنين شعلةً تُنيرُ دربي، وتمدُني بالطاقةِ والقوة ما حييتُ. .

الفصـل الخامس

" رسالة سلام "

عند هبوطي بمطار دمشقَ الدولي، كانت الساعة تشيرُ إلى الثانية زوالا، لم أكن أتوقعُ أن أجد حسان ينتظرني أمامَ سيارته خارجَ المطار، كنتُ أبحث عن سيارة أجرة عندما سمعتُه يناديني، التفتُ إلى الخلف فرأيتُ ابتسامته المشرقة تشقَّ طريقَها وسط الجموع الغفيرة وتدعوني لركوب السيارة، في الطريق نحو وسط المدينة سألني:

- هل تقصدُ الفندقَ المُعتاد؟

- نعم.

- هذا ما توقعته، لقد حجزتُ لك غرفة البارحة.

ابتسمتُ وأنا أشكره بامتنان ثم سألتُه بدوري:

- هل البضاعة جاهزة ؟

- طبعا، هذه المرة حضرنا لك ملابس أطفال فاخرة مصنوعة من أقمشة جيدة.

لدى وصولنا إلى فندقِ فاطمة الزهراء بوسط دمشقَ، أخبرني صديقي ذي الأصول اللبنانية أنَّه سيسافرُ بعد يومين إلى جنوب لبنان لزيارة عائلته بمدينة صور، وطلب مني أن أرتاحَ قليلا قبل أن يرجع لينقلني إلى ورشته.

كان حسان مثالا حيّا للرجل العربي الكريم، كان طيبا جدا تفوحُ من كلماته عطورُ الشهامة والنخوة والكرم، كما كان مثالا للفنان الأصيل والمسير

الحكيم؛ فمنذُ أن كلَّفته زوجتُه السورية بالإشراف على ورشتها المتخصصة في خياطة ملابسِ الأطفال، والأرباح تزداد من سنة إلى أخرى، كان يُصمم النماَذج بنفسه لتصبحَ في آخر المطاف قطعًا فنية جميلة يتهافتُ عليها التجارُ من كل حدب وصوب، تعرّفتُ عليهَ في إحدى زياراتي لسوق الحميدية، فحين كنتُ أبحث عن متجر لبيع ملابس أنيقة للأطفال اعترض طريقي، وطلب مني باحترافية عالية أن أتبعَه إلى ورشته، وفعلا أعجبتني معروضاتُه ، ووجدت طلبي عنده فاتفقنا على العمل معًا.

*****

بعد راحة دامت حوالِي ساعتين من الزمن، وقفتُ على عتبة ورشة حسان، ورحتُ أنتظرُ انتهاءه من إعطاء التعليمات لعمَّاله، وعندما استدار نحوي أسرع إلىّ باسمًا وقال :

- تفضَّل يا أخانا الجزائري، شرّفتَ المقام، يا ولد هات الشاي.

كنتُ سأقصدُ النزول للتو لمرافقتكَ إلى هنا لكنكَ سبقتني .

قلتُ وأنا أتأملُ النماذج المعلقة :

- فعلا أرى ثيابًا جميلة جدا هنا .

ابتسم وقال بسعادة:

- قالت زوجتي نفس الكلام منذُ قليلٍ عندما زارتْ الورشة.

صمتَ قليلا ثم سألني باهتمام :

- لن تستطيع زوجتي مرافقتي هذه المرة إلى لبنانَ،لأنها فضلتْ البقاء لرعاية أختها الصغرى التي أنجبتْ صبيا منذُ يومين فقط، ما رأيك أن ترافقني؟ لبنان حلوة جدا، سترى أنَّها ستعجبكَ .

قلتُ ونوع من التردد ينطق مع نظراتي :

- سمعتُ أنَّها جميلة جدًا إلى درجة أنَّها سُميتْ بسويسرا العرب، لكن علىّ أن أعودَ إلى الجزائر قبل...

- لا تقلق يا صـــديقي، ســـنبقى مدة ثلاثة أيامٍ فقط، بعدها ســـنعودُ مباشرةً إلى هنا.

- حسنا سأقومُ بالإجراءات الإدارية اللازمة للحصول على تأشيرةِ للدخول إلى التراب اللبناني، ولتأجيل موعد عودتي إلى الجزائر.

ابتسم وقال بسعادة:

- حسنا لا تضيعُ الوقت، هل جواز السفر معكَ الآن ؟

- نعم.

- هيا، لنطلبَ التأشيرةَ معًا.

استدار حسان نحوَ أحد عماله وقال:

- صهيب، راقبّ العملَ، سنعود بعد قليل.

بعد يومين، ركبتُ الســيارة باتجاه لبنانَ، كانت حرارة بداية شــهر تموز مرتفعة جدا، أثناء الرحلة لم يتوقف حســان عن الحديث عن حزنه الشــديد لما آل إليه وضــعُ العراق من تمزّق، لينتقل بعدها للتعليق على مُجريات مبارِيات كأس العالم لكرة القدم التي انتهت منذُ أيامٍ بفوز المنتخب الإيطالي، أذكرَ أنَّه قال لي : " إن بعضَ الشباب السوري ممن تابعوا المقابلة النهائية التي جرتْ بينِ فريق إيطاليا وفرنســـا هتفوا يومها لنطحة زيدان بافتخارٍ، وتمنوا أن تفتحَ النطحة المجال أمام نطحات عربية سياسية وعسكرية؛لاستعادة الشرف العربي المفقود بفلســـطين والعراق، أتذكرَ يا أخي أن أمريكا دخلت إلى العراق لنزع

أسلحتها النووية، وبعدها نسيتْ قصة الأسلحة لتصرحَ بعدها أنَّها لن تخرجَ من البلد حتى تزرع فيه بذرة الديمقراطية، أنا لا أنخدعُ بهذه الأقوال الكاذبة، فالتاريخُ أثبت أن الفاتحين منذ الأزل إلى اليوم لا يستعمرون بلادًا لفائدة سكانها بل لمص دمها والانتفاع بمواردها الاقتصادية، فماذا يريد الذئبُ من النعجة غيرَ أكلِ لحمِها يا أخي ؟"

وكانتْ كلمات حسان المشبّعة بالمرارة تمتزجُ بكلمات قصيدة مديح الظل العالي لمحمود درويش وأغاني المطربة فيروز التي كانتْ تُرافقنا على طول الطريق، وهي تنبعثُ هادرةً من مسجل السيارة.

بعد حوالي خمس ساعات من السفر وصلنا إلى مدينة صور، توقفت السيارة أمام فيلا صغيرة ذات طابقين وحديقة واسعة.

قال حسان دون أن ينتبه إلى شحوبي المفاجئ :

- ها قد وصلنا.

نزلتُ من السيارة وصُوَرٌ من الماضي تغزو شاشة ذاكرتي، كان البيت يشبه إلى حد كبيرٍ منزلَ عائلة سندس، أحسستُ بانقباض في قلبي، ولكن سرعانَ ما تلاشى عندما تذكرتُ نجمة أخرى تلألأت ساطعة في سماء حياتي، لكنِّي لن أنكرَ أيضًا أن منزلَ مضيفي سكن قلبي دون استئذان .. تساءلتُ في سري ، أيمكنُ أن تكونَ حنين مورفينا جديدًا في حياتي ؟ لكن الفكرةَ سَرعانَ ما اختفتْ أمامَ حفاوة الاستقبالِ وكرم العائلة المضيفة.

*****

في يومي الثاني بصور، وبينما كنتُ جالسًا في حديقة المنزلِ رُفقة صغيرِ العائلةِ سامي الذي راحَ يلعب بحنانٍ مع قطته الصغيرة ميمي ، وهو يخبرني

عن أصــدقائه ومدرســته وأحلامه، إذ بحســان يقتربُ منِّي بسرــعة كبيرة، وهو يقولُ :

- يا للأقدار! علينا العودةُ حالا إلى دمشقَ .

سألتُه بقلقٍ وقد ظننتُ أن فزعه يتعلقُ بزوجته أو ورشته:

- ماذا هناك ؟

- إنها الحربُ.

صاح سامي:

- الحربُ !

- لم أفهم شيئا ! الحرب .. مع من ؟ ضد من ؟...

وعندما رآني حسان أنظرَ إليه بعينين جاحظتين غبيتين قال موضحًا :

- إسرائيل تقصــفُ حاليا الجنوب، إنِّها قاســية، لن تفرَق بين البشرــ والحجر.

ركضَ ســامي إلى الداخلِ، ليعودَ متبوعًا بجدته العجوز،ووالدته الجميلة زينب، وابنة خالته ماجدة ذات العشرــة ســنوات من العمر والتي جاءت من بلدة قانا؛ لتقضيَ عطلتَها الصيفية رُفقة جدتِها، الكلٌّ راح يتكلم في آنٍ واحد.

- ماذا هناك ؟هل هى حربٌ جديدة ؟ يا إلهي ألا ينتهي كل هذا ؟

- يجبُ أن ننزحَ إلى بيروتَ .

قال حسان :

- بل سنذهبُ مباشرةً إلى دمشقَ، إسرائيل ستقصف حتمًا الضاحية الجنوبية لبيروت، ولن نكونَ هناك بمنأى عن الخطر.

صمتَ برهة ثم خاطبني قائلًا بحزم :

- سأنقلك حالا إلى دمشقَ، يا لسوء الحظ، تعرّفتُ عليكَ منذُ سنة كاملة، لم أطلب منكَ فيها مرافقتي إلى هنا إلا ونحن على أبواب الحرب.

قالت والدة حسان بارتباكٍ :

- رحماك يا رب !غضبُ إسرائيلَ لا يُحتمل.

- سأنقلُ نصفَ العائلة، أما البقية فعليها انتظار عودتي.

قال سامي بخوفٍ وشجاعةٍ في آنٍ واحد:

- أما أنا فسأبقى هنا في انتظارِ عودة والدي، لن أذهبَ معكَ إلى أي مكان.

نظر حسان إليه بحنان وقال:

- بقاؤكَ لن يغيّرَ من الأمر شيئًا، لابد أن نُبعدَكَ من هنا في الحال.

عانقته والدته بمودة وقالت، وهى تخاطب حسان شقيق زوجها، والدموع تتلألأ في مقلتيها :

- حسنا !نحن سنبقى رُفقة الجيران، أظنَّ أن ملجأهم أكثرُ أمنًا.

قطعتُ حديثَها قائلا:

- اذهبي أنتِ وولدكِ برفقته أما أنا فسأبقى هنا.

قال حسان بشهامة:

- لا، لا يمكن هذا يا صـــديقي، لن أتركَكَ هنا، مثلما نقلتكَ إلى الموت سأنقلُكَ إلى الحياة من جديد.

ابتسمتُ رغمَ كلِّ شيء وقلتُ :

- اللهُ هو الذي يُحيي ويُميت، سأبقى هنا يا صديقي، و ..

لكن صـــوتَ انفجارٍ قريبٍ أســـكتني بغتةً، وزرع في قلبي رعبًا مفاجئًا، إذن هذا هو أنا، جبان، خائف، فعلا كانت أمي خلال نقلها للمؤن الغذائية إلى المجاهدين أكثرَ شـــجاعة مني ..آه يا أمي اليومَ فقط عرفتُ قيمة كنزك الثمين ..اليومَ فقط تيقنتُ أنَّ حكمتَك الصـائبة في الحياة صـقلتها المواقفُ الصـعبةُ ،والبطولات الضخمة لم تأتِ منَ العدم...

صاحتْ العجوز:

- أسرعوا إلى الملاجئ، القذائفُ تقترب.

بعـ د دقائقَ وجيزة كنا داخلَ ملجأ عمارة شـــاهقة رُفقة عدة عائلات، نظر تُ حولي فلمحتُ حسَـان جالسًـا القرفصـاء، وهو يضـمّ سـامي بين ذراعيه، فقلتُ له:

- لكن أين هو والد ســـامي؟ لم أره منذ ســـاعات، ربما يكون في المنزل، علينا بإخبارِه عن مكاننا.

لكن حسان أجابني في لا مبالاة أدهشتني قائلا:

- لا عليكَ، سيتدبرَ أمورَه .

صمتَ قليلا ثُمَّ واصلَ حديثه بصوتٍ عميق:

- عندما يتوقفُ القصفَ سنسافرَ حالا.

دخل أحدُ الشباب إلى الملجأ، وقال لاهثًا :

- إنَّها تقصفُ القرى المجاورة.

بعد ساعة، اختفتْ الأصواتُ المرعبة، فخرجنا من الملجأ والخوف الحذر يسيطران على كلِّ المواقع المظلمة في داخلنا.

كان سامي أكثرَ شجاعة مني، أتُرى لأنَّه كان طفلا لم يعِ بعدَ خطورة الأمر ؟ ربما.. وربما لكونه رضعَ الشجاعة من الحكايات والبطولات السابقة لمقاومي المنطقة.

جمعتْ العائلة ما خفَّ وزنُه، وثقلت قيمتُه، واتجهنا إلى قانا، وفي منزل خالة سامي تقرّر نقلي رُفقة الجدة وماجدة ووالدتها وابنتها الرضيعة إلى دمشقَ، على أن يعودَ حسان بعدها لينقلَ سامي ووالدته وباقي أفراد العائلة، إلا أن الأقدارَ رمتْ بنا في مدرسة كنيسة ببيروتَ رفقة عائلات أخرى هرَبت من القصف، تركنا حسان هناك على أمل أن يأتيَ ببقية العائلةَ، وننتقلُ جميعا إلى دمشقَ على متنِ إحدى حافلاتِ النازحين .

لكن حسان لم يعد، أتراه اُستُشهِدَ أم أنَّه نقلَ الباقين إلى دمشقَ مباشرة دون المرور بنا، ولم تُمكنه الأحداثُ من العودة ؟ آلافُ الأسئلة راحتْ تتزاحمُ في ذهني، إلا أنِّي قررتُ أخيراً التوقف عن التفكيرِ والشروع في العمل وتقديم يد المساعدة للتكفُّلِ بعلاجِ النازحين .

ومرّتْ أيامٌ وأيام دونَ أنْ يظهرَ حسان، وتناقلتْ الأخبارُ قصف قانا وسقوط عشرات الأطفال قتلى في إحدى ملاجئها، وبكتْ جدة سامي بحُرقةٍ، واتفقَ طرفا القتال على هدنة مدتها 48 ساعة.

في خضَمِ تلك الأحداث المتسارعة، قررتُ الرجوع إلى قانا للاطمئنان على سامي، وقتها وأمام دموع الَجدة لم أستطعْ أن أجعلَ قراري قابلا للتعديل أو

الإلغاء، فوقعت عليه بتصـــميم كبيرٍ وإرادة فولاذية، ووضـــعتُه حيزَ التنفيذ، الفكرةُ بدتْ لي أ ول الأمرِ مجنونة، ومع مقاومة عنيفة ضـدَ حُبِّ الحياةِ تمكنتُ من العودة إلى قانا لأطمئنَ على عائلةِ صديقي .

*****

كان المصورون ينتشرون كالنَّحلِ،وهم يلتقطون أكثرَ الصور تعبيرا...

الصحافيون يقتبسون من كل ذلك الخرابِ مقالاتِ ساخنة...

رجالُ الإغاثة يحاولون البحـثَ عن بقايا الإنسان، عن بقايا أشلَّاء، الأهالي يطلبون الرحمةَ من الله، ينتحبون، ويتسابقون للمساعدة...

هناك، أمام حائطٍ ظلَّ قائمًا رغمَ قســوة البشرـ وقف رجلٌ يبكي بمرارة، أولُ الأمرِ ظننته شـــخصًـــا فقدَ ذويه، لكن مظهره كان يدلُّ على أنَّه صـــحفي أجنبي، أثارني الـ فضولُ فاقتربتُ منه، نظر نحوي من خلف الدموع الغزيرة التي كانتْ تحجبُ لونَ عينيه الخضـــاوين، وقال يســـألني دونَ أنْ يتمكنَ من كبحِ جماحِ حُزنه :

- Oh my god! Oh my god! What's happening to the humanity? What's happening to the world?

لم أجبه، لكنني نظرتُ إليه بفضولٍ، واصل قائلا وهو يوجه كلامه إلى بقايا الأطفال:

- Sorry...children...sorry!

أثارني حزنه فسألته:

- What's your nationality?

أجابني بعفويةٍ ودونَ تردد :

-I' m American.

حملتني الذاكرة إلى رائحة أمي،إلى ذكرى من ذكريات أمي، كانت كثيراً ما تُكرر على مسامعي حكايةَ جندي فرنسي ـ رأتُه عدة مرات يبكي أمامَ مشاهد التعذيب القاسية، حين ضبطتُ أمي تحملُ أقراصًا من الكسرة الساخنة إلى خارج المحتشد، سُجنتْ وعُذبتْ بقسوة، زارها ذلك الجندي الفرنسي ـ الشاب يومًا في السجن، وطمأنها بوَاسطة الإشارات على أختي الكبرى سليمة التي لم تكن تتجاوز آنذاك ثلاث سنوات من العمر، وأفهمها أنه سيعود قريبًا إلى أهله، وسيرى من جديد والدته التي اشتاقَ إليها كثيراً لأنَّ الجزائر ستتحرر قريبا، وكان ذلك ما حدث فعلا.

عندما خرجتْ والدتي من سجن المحتشد، أخبرتها أختي سليمة أن جنديًا فرنسيًا كان يعطيها في كلِّ صباح خبزًا وقطعة من الشيكولاتة، وأنه علَّمها كتابةَ بضعة حروف باللغة الفرنسية، وأنَّه كان يبكي كلما رآها ترتجفُ من البرد، وأنَّه أعطاها ذاتَ يومٍ معطفًا صغيرا.

شكرتُه أمي في سرِّها لأنَّها لم تره بعدها، فقد غادر الجزائر رُفقة الدفعات الأولى، وذهب سالمًا إلى أهله.

كان ذلك الجندي الفرنسي إنسانًا بامتياز...

و كان ذلك الصحفي الأمريكي أيضا إنسانا بامتياز...

وعرفتُ حقيقة أخرى، كلما أظلمتْ قلوبٌ، أضاءتْ قلوبٌ أخرى بنورِ المحبة والحنان في جميع أقطارِ العالم، فالحقدُ لا يُعشش إلا في القلوب القاسية التي تغذَّتْ بحليبٍ ملوث بالكراهية... أما الأرواحُ الشفافة فهي تتركُ الحبّ والسلام يتسربان إلى داخلِها بعفوية لتنشرهما من حولها بسخاء.

سألتُ أحدَ الشبّان :

- هل أنتَ من المنطقة؟

- نعم.

- إلى أين نُقِلَ المصابون ؟

- إلى مستشفى صور.

- هل لديك أخبارٌ عن طفل يدعى ســامي وبقية عائلته ؟ إنَّه ليس من المنطقة لكنه جاء إلى هنا رُفقة والدته من صور.

- ومن لا يعرف سامي هنا ؟ إنه شاعرَ بارع، تُوفيتْ والدته زينب، أما هو فقد نُقِلَ إلى مستشفى صور.

*****

نظر ســامي نحوي نظرةً بعيدةً عن المكان، وهو يراني أقتربُ منه، وقال بوهنٍ وبراءة:

- أرجوك يا عمي منير، انزعْ هذه الإبرَ، إنَّها تُوجعني.

لكني لم أنفذ طلبه وقلتُ له :

- اصبرْ يا سامي، سترى أنكَ ستتحسن...

قال الصبي بأسى:

- حسنا، لكني لا أستطيعُ الكتابة.

- عليكَ أن ترتاحَ، بعد شفائكَ ستكتبُ كلَّ ما تريدُ .

- لكنِّي أريد أن أكتبَ رسالةً هامة جدا بالنسبة لي.

- أهى إلى والدكَ ؟

ابتسم بكآبة وقال:

- إلى والدي؟ أتمزحُ؟ أين يمكنني أن أجدَ عنوانَه الآنَ، حاليا هو يجاهدُ في سبيل الله والوطن.

- هل والدكَ مقاوم ؟

- نعم، ألم يخبركَ عمي حسان بالأمر؟

- لا.

- إنها أمورٌ سريةٌ يا عمي منير، لا تخبر أحدًا بما قلته لكَ، هيا عِدني بذلك.

- أعدُكَ .

لفَّني صمتٌ ثقيل وأنا أُفاجأ بضجةٍ كبيرةٍ عندَ الباب، فقد أحضروا أطفالًا آخرين مزَّقتهم أنانيةُ البشر.

اقترب أحد الأطباء منِّي، حيّاني وقال وهو يهمسُ في أذني:

- لا يمكنُكَ البقاءُ هنا، هؤلاء الأطفالُ في حالةٍ سيئة، علينا أن نوفرَ لهم الهدوء ليرتاحوا.

- لكنْ الصبيّ يريدُ أنْ يكتبَ رسالةً، إنَّها مهمة جدا له، ألا يمكنني مساعدته قبلَ الانصراف؟

ابتسم الطبيب وقال:

- حســـنا! يمكنك ذلك، طلب مني البارحة قلمًا وأوراقا أخفاها تحت الوسادة.

قال سامي وهو يحاول إخراج كنزه الصغير:

- أرجوكَ أن تكتبَ الرســـالةَ، حاولتُ البارحة لكني لم أســـتطعْ ذلك، سأمليها عليكَ، إنَّها رسالةُ سلامٍ إلى كلِّ البشر.

عاونتُ الصــبيّ على ســحب الأوراق، وأنا أقول وعلامات التعجب باديةٌ على وجهي :

- رسالة سلام!

- نعم، إنِّها رسالةٌ إلى كلِّ قابيلَ لا يزالُ حيّا ليكفَّ عن قتلنا، ليكفَّ عن تهديمِ بيوتِنا الصغيرةِ وأحلامِنا الكبيرةِ.

أمعنتُ النظرَ إليه، وقلتُ بتعجب:

- فعلا ! يا لكَ من شاعر!

- الإحســاسُ بالظلم يا عمي يجعلكَ تتخذُ من الكلمات ســلاحًا للدفاع عن نفسكَ ولتفريغ الهموم، عدني بتبليغ الرسالةِ إلى أصحابها.

- ستبلغها بنفسكَ.

همس بصوتٍ منخفضٍ حتى لا يصلَ حديثُه أسماعَ جيرانِه بالغرفة:

- أرى الموتَ يقتربُ رويدًا رويدًا، لا أظنَّ أنِّي سأعيشُ، البارحة رأيتُ في منامي جدي المتوفى مبتسمًا، وهو يمد يديه نحوي.

- لا تكترثْ للأمرِ يا سامي، إنها مجردُ أحلام.

سألني والأملُ يلمعُ في عينيه من جديد:

- إنْ أنا اُستُشهِدتُ، سأدخلُ الجنةَ، أليس كذلك ؟

- كلُّ الأطفال يدخلون الجنةَ يا ســامي، إنَّكم البراءةُ والصــدقُ والأملُ وكلُّ شيء جميل في الوجود.

نظر إلى جســده المتألمِ وإلى أجســادِ الأطفالِ الآخرين وقال، والدموعُ تترقرقُ على وجنتيه الشاحبتين :

- إذن، لماذا فعلوا بنا هذا ؟ لماذا قتلوا أمي ؟ لماذا ؟...

- سينالون عقابَهم من الله إن ..

لكن الصبيّ قاطعني بسعادةٍ غريبةٍ في مثل هذه الظروفِ قائلا:

- أظنَّ أن جدي ينعمُ الآنَ في الجنة، فقد جاء ليرافقني معه إلى هناك. لن أكونَ وحيدًا، هيا يا عمي منير ابدأ بكتابة رسالتي، قد لا يكون هناك متسعٌ من الوقت إنْ نحن تأخرنا في كتابتها.

راحَ الصــبيّ يُملي كلماتٍ انبثقتْ من بين الرَّمادِ والدُّخَان، من بين الأملِ واليأسِ، من بين الألمِ والجرحِ، من بين الحياةِ والموتِ، من بين الفَناء والخلودِ .

قابيـل .. رجاء.. توقـف..

إنْ كنتَ شخصًا، أو كنتَ جيـشًا، أو حتى دولـةً، توقفْ...توقفْ...توقفْ عن قتلِ أخيك هابيل، رفقًا بـه، رفقًا بنا،

فكلُنا إخوةٌ، وكلنا من آدمَ، والعدوُ واحدُ، شيطانٌ حاسدٌ،عَصَى الإلــهَ،لم يرضَ لنا بالجنة سكنَا، فأبَى أنْ يركـعَ لأبينـا، وأغــواه، ليغوينــا، وزيّن له شجرةَ الوهمِ خُلدا، وزيّن لنا المُلكَ في الدنيا خُلدا، وخُلد الماضي وهمٌ، وخُلد الحاضرِ

وهمٌ، فكم مـــن دولـــةٍ عُظمى سقطـــتْ، بعد أن أعياها الظلمُ تحتَ وهم الوهمِ، وكم من ملك صالَ وجالَ في ربوعِ الأرض، متسلحًا بوهمٍ، مُدنسا تاريخَه بدمِ الأبرياء، لكنَّه في لحظة لم يتوقعها، أخذه الموتُ إلى الحقيقةِ، تاركًا وراءه ذلك الوهـم.

قابيل ... رجاء...توقف...لا تجعـلْ الوهـمَ إرثًا، يُضحى من أجله بالحياة، لماذا ترســلُ القنابلَ على الرؤوس الصــغيرة النائمة فتُحيلُها في لحظة رمادًا؟ لماذا تنافقُ الإلهَ وتنادي بالســلامِ والمحبّــةِ وأنتَ تخونُ الرسلَ والأمانةَ وأنتَ تخونُ حتى نفســك؟ توقــفْ رجــاء، فكلُّ مَن عليها فان، ولن يبقى يا قابيلُ إلا وجهُ ربِّكَ ذي الجلالِ والإكرامِ .

كانت تلك رسالة طفلٍ مُحتضرٍ إلى كلِّ البشرِ..

ولم يعشْ ســامي إلا ســويعات بعد ذلك، فقد ســقط نجمُه فانكســر فانتثـــر وما اندثـــر، لكن كلماتَه ستبقى نسماتٍ من نور خالدةً في قلبي ما حييتُ.

كنتُ في الملجأ الذ ي قصدته احتماءً من الغارات عندما وصلني الخبر.

وكان خبرًا رهيبًا سقط في لحظة أملٍ على رأسي كقنبلة غير منتظرة.

ضغطتُ على الرسالة في جيبي وقلتُ :" سأحافظُ عليك مهما كان الثمنُ فأنت الفكرة الـصافية للـسلام الـشفَّاف، أنت الفكرة الحقيقيةَ في خيال الأطفالِ والـخيالية في واقعِ الكبار.. أنتِ الفكرةُ المستحيلة ".

في تلك الليلة انقطع التيارُ الكهربائي بالملجأ، أشعل أحدُ الـشيوخ شمعةً احتفظ بها داخلَ جيب سترته للطوارئ، فانتشر نورٌ باهتٌ أضاء الوجوهَ المتعبة والشـــاحبة، فيما راحتْ ظلالُنا تتحركُ على الجدران، كنتُ أخافُ من ظلِّي حين كنتُ صـــغيرا، فعندما كان الليل ينحني بردائه الداكنِ على قريتي التي وُلِدتُ

فيها، وحينما كانتْ الشموع تُشعَلُ داخلَ الأكواخِ الصغيرة، كنتُ عادةً ما أتبعُ والدتي في تحركاتها بين غرفتي كوخنا الطيني دونَ كللٍ لكي لا أبقى بمفردي خوفًا من ظلِّي. لَم تكن والدتي آنذاكَ تعرفُ سرّ حركتيَ المستمرة. كانتْ المسكينة تُقبلني وتقول لوالدي من حينٍ لآخر:

- يحبني ولدي كثيراً، فهو يلازمني طول الليل كأنه يحن إلى فترة الرضاعة .

وبعد أن بدأتُ أتعلَّم الكتابةَ والقراءة وتلاوة القرآن الكريم على يد الشيخ سي الحسين في سن الخامسة من عمري تجرّأتُ يومًا وسألته:

- ربِّي يرحمك، قل لي يا سيدي، لماذا تخرج الوحوش ليلا ؟

ضحك وقال يسألني:

- رأيتهم ؟

قلتُ بفزعٍ وبجرأة أكبر وأنا أرفعُ صوتي:

- نعم سيدي، على حيطان الدار.

قهقهَ سي الحسين بصوتٍ عالٍ على غير عادته،فقد كان شخصا رصينًا وجادًا لم نرَ الابتسامة فيما سبقَ على شفتيه، وسأل بمرح :

- وفي النهار؟

- تبدو صغيرة قليلا وخاصة عند طلوع الشمس .

- منير، ذلك هو ظلك يا ولدي .

بعدها، راح سي الحسين يُحدثنا بجديةٍ عن النور والظِّل كان درسه مفيدًا لي، فمنذُ ذلك الوقتِ فهمتُ أن الغولَ أَو الشبح الذي كان يتبعني لم

يكن سوى صورتي السلبية...لم يكن إلا ظاهرة فيزيائية...لم يكن إلا انعكاساً للضوء على جسدي، فلم أعدْ أخافُ منه ولا حتى آبه لوجوده، ولم أعد أتبعُ والدتي في تحركاتها ليلًا، مما أثار فضولها، ربما شعرتْ بالحزن فقد تعودتْ ملازمتي لها، وربما آلمها بداية انفصالي عنها، لقد أخبرتني يومًا أنَّها بكتْ حين جف ثديها وتوقفت عن إرضاعنا أنا وأختي منيرة ونحن لم نتم بعد السنتين من العمر، و لم تدمْ حيرة والدتي طويلا، ففي آخر المطافِ أوعزت سلوكي الجديد لانتقالنا من الريف للسكن وسط مدينة جيجل.

عدتُ من زمن الطفولة إلى زمني...عدت من السلام إلى الحرب...

لم يعد الغولُ في ذهني مجردَ أسطورةٍ نسجها خيالُ هُوميروس،

لم يعد الغولُ مجردَ ظلٍّ يتبعني، لم يعدْ وهمًا،فهو حقيقة، كان حقيقة، ولازال حقيقة؛ لأن الغولَ هو الإنسان .

***

بعد يومين، تمكنتُ من العودةِ إلى بيروتَ، وبمدرسة الكنيسة رحتُ أنتظرُ نهايةَ المأساة .

كانت أيامُ النزوحِ صعبةً، جدة سامي ما انفكتْ تبكي بصمتٍ شهداء قانا ولبنانَ حتى تورّمتْ عيناها واحتقنتا، وبدتْ كأنها فريسةٌ لنوبةٍ من نوباتِ الصرعِ والجنونِ، فقد كان حزنُها أكبرَ من مساحات قلبِها، الشيوخ راحوا يبتهلون إلى الله في صلواتٍ خاشعة أنْ يتغمدَنا جميعًا برحمته الواسعة، وسادَهُم شعورٌ بالمرارة لاَ يرحم ، في الوقت الذي كان الأطفالُ يرسمون فيه أشلَّاء ونيرا نًا وقنابلَ، والرّضع يبتسمون بسذاجة للحياة فما كان يحدث في أماكنِ القصفِ القريبة لم يكنْ ليعني عالمَهم الملائكي؛ فكانواَ لا يبكون إلا عندما

كانوا يشعرون بالجوعِ أو التعب أو الخوفِ من صوتِ القذائف و من همجيةِ البشر...

الأحلامُ الورديةِ راحتْ تزدادُ سيطرةً على العقولِ والقلوب رغمَ الحصار ستنتهي الحربُ قريبا، وسيعود الجميعُ إلى الديّار.

وحسان اختفى، لم أعدْ أراه، هل استُشهِدَ هو أيضًا ؟ لستُ أدري.

حين تذكرتُ الشيخ ياسين، قررتُ أن أعودَ إلى سوريا، ومن هناك إلى الجزائر، لا ريبَ أنَّه ينتظر عودتي بفارغ الصبر.

اتصلتُ بأختي منيرة هاتفيا، وأخبرتُها عن ظروفي ورجوتها ألا تخبرَ أحدًا بالأمر، وطلبتُ منها أن تُبرِّرَ غيابي عن المنزلِ بقصةٍ خياليةٍ ومقنعةٍ حتى لا تنزعج أمي، وأعلمتُها بأنِّي في طريقِ العودة..

بعدَها ركبتُ سيارةً أجرة مقابل مبلغٍ مرتفعٍ جدًا لتنقلني إلى دمشقَ، رحتُ أتحسسُ مشاعري " لقد عرفتكَ يا منير، أنتَ هارب، أنتَ خائفٌ ". في تلك اللحظة، استفاقَ ضميري صارخًا في وجهِ السائق :

- توقفْ أرجوكَ، أريدُ العودةَ، لا يجبُ أنْ أهربَ، أنا طبيبٌ وواجبي يحتمُ عليّ البقاء لمدِّ يد العونِ ..

قاطعني السائقُ قائلًا:

- هل أنتَ مجنون ؟ إنْ رغبتَ في العودة فعُدْ وحدَك، أنا...

فجأةً.. بدأتْ القذائفُ تمزِّق الطرقَ، صاح السائقُ وهو يوقفُ محركَ السيارة:

- تبًا، إنَّهم يقذفون كلَّ شيء يتحركُ، يجبُ أن نغادرَ السيارةَ حالًا ونحتمي بالأشجار، لقد تسرعنا، كان علَينا لو رافقنا قوافلَ الإغاثةِ العائدة.

خرجنا بـ سرعة من الـ سيارة مبتعدين عن الطريقِ باتجاه الغابة القريبة، وفجأةً .. سمعتُ صوتَ انفجارٍ قوي، وأحـسستُ بـشظايا تخترقُ قدمَي: - آه ! لقد أصبت .

الدماءَ تنزفُ، والسائقُ يحاولُ الجري بكلِّ قوته.

فجأة شاهدتُ شعاعًا من نـورٍ ساطعٍ انطلق من السماء ليخترقَ الدخان والدمارَ ورائحةَ الموتِ، ويمتدُ إلى المكان الذي كنتُ ممددًا عليه أصـــارعُ آلامَ جُرحي الجسدي والرّوحي؛ ليحملَني معه إلى فضاء رحبٍ لا يعترفُ بالحدود ولا بالخَط الأزرقِ، ويســـبح بكلِّ حريةٍ بين الكواكب والشُّـــهب، فلا الجاذبيةُ ولا القوانَينُ الوضـــعية ولا شرائعُ البشرِ كانت قادرةً على أن تؤثرَ فى، ولا حمم الشـــمس كان بإمكانها أن تحرقَني ولا الأعاصـــير ولا الرياح ولا تســـونامى كان قادرًا أنْ يُزلزلَني.

******

كنتُ معلقًا بشـــعرة خفيفةٍ بين الحياة والموت..رأيتُ وجهَ حَنين ينحني فوقَ رأسي وسمعتُها تقول " لا تنم .. استيقظ ".

حاولتُ فتحَ عيني بتثاقلٍ، أصـــواتٌ راحتْ تأتيني من بعيدٍ أو هكذا خلتُها..

بياضٌ ناصعٌ كان يدورُ حولي ويدور..

أين أنا ؟ في الآخرة ؟ في الدنيا ؟

لم أكن أعلم تمامًا..

لكني عرفتُ أنِّي كنتُ لا أزالُ حيّا، وأنا أسمعُ أحدهم يقول :

- هيا استيقظْ أيّها الشابُ.

بعد دقائقَ تمكنتُ من السؤال ببطء:

- أين أنا ؟

وجاءني الجوابُ :

- في مستشفى رفيق الحريري.

لم أفهم الشعورَ الذي انتابني آنذاك، هل أحسستُ بالسعادة ؟ ربما، لكنِّي أحسستُ أيضًا بالخوف، تمنيتُ لو استطعتُ تفقدَ أطرافي، لكن يدي لم تتمكنا من الحركةِ بعد لكوني لم أستيقظْ تمامًا.

بعد ساعتين تمكنتُ من رؤية الوجوه المحيطة بي بوضوح، ولفرط سعادتي رأيتُ كلَّ أعضائي كاملة، لكن قدمي اليمنى كانت ملفوفةً في الجبس.

حرّكتُ جسدي :

- آه ! حمدًا لكَ يا رب، أنا أتحرّكُ.

أخبرني أحدُ الممرضين عن حالتي قائلا :

- احمدْ اللهَ على نجاتكَ أيّها الشابُ المحظوظ، عندما أو صلوك إلى هنا كان النزيفُ قد بلغَ الحدَّ الذي قل فيه قلبُكَ عن النبض، بادرنا بسرعة إلى تحليل دمك لمعرفة الزمرة، ولسوء الحظ كان دمُك من نوع أ سالب وهو ما لم يكنْ متوفرًا بالمستشفى، توقَّف قلبُكَ فجأة عن النبض، حاولنا بالصدمات الكهربائية مساعدتك إلا أن محاولاتنا باءتْ بالفشل لولا اللهُ لكُنتَ الآنَ فَي عدَاد الأموات، حيث سمعتْ نداءَنا امرأةٌ تحملُ نفس زمرتك جاءت لرؤية حفيدتها الجريحة، فأسرعتْ لنجدتكَ في الوقت المناسب، بعدَها وصلتنا أكياسٌ أخرى مَن الدم تم التطوعُ بها لفائدة الجرحى.

ولم أســتطعْ أن أتكلمَ، كنتُ متعبًا، حتى فرحي بنجاتي اختفى فجأةً وأنا أتذكر صـــديقي حســـان، أين هو الآن يا تُرى ؟ وحين عادتْ حنين بدورها إلى ذاكرتي تســاءلتُ في سري : " هل سـيمكنني اللهُ من رؤيتها ثانية أم أنَّ الأقدارَ ستحولُ دونَ ذلك ؟"

آه يا حنين، يا نبضَ القلبِ ونورَ العينِ ..

يا سمائي وشمسي وأرضي ..

يا واحةً فيحاءَ وسطَ صحراءِ جرداء ..

يا بحرَ الحُبَ ..

يا وردةً حمراءَ انشـقتْ من بين خلايا الحنينِ، لتحملَ بين ضـلوعِها ألفَ قضيةِ وقضيـة ..

آه .. يا حلمًا يترنحُ بين الخيالِ والحقيقةِ ..

بين الحياةِ والموتِ، بين السماء والأرض ..

أطلبُ منكِ الصفَّحَ فهل تعذريني؟ .. هل ؟

*****

توالتْ الأيّامُ في كسلِ ..

تواصلتْ الأحداثُ بغزارةِ ..

استمر القصـفُ بقـوة، وكثَّفتْ الآلة الحديدية عديمة الإحساسِ غاراتِها الانتقامية برًا وجوًا وبحرًا.

سقط الموتُ على القرى والمدن حاصدًا الساكن والمتحرك ..

مجازر.. دماء..أشلَّاء .. كلابٌ تنهشُ جثثَ الإنسان...

بُنى تحتية مُحِيَت ومساكن سُوِيَت بالتراب...

زادت حركةُ الملائكة بين السَّماء والأرض؛ لتحملَ الشهداءَ إلى عالم آخر، وهوت الحماماتُ البيضاء أرضًا وهى تُقطر دمًا، وسقط القناع عن القناع، كَثُرَتْ الشطحاتُ السياسية والرحلات بين العواصم العالمية، مسودات كثيرة فرنسية وأمريكية راحتْ تُعدل كل دقيقة ألف مرة ومرة، لكنِّها في كل مرة كانتْ لا تحيدُ عن فلسفة الأقوياء، وتمثال الحرية بنيويورك ما فتئ يطلقُ من شعلته الملتهبة القنابلَ العنقودية والصواريخ الذكية على البيوت الصغيرة الآمنة في جنوب لبنان؛ ليحيلها ركامًا وذكريات حزينة، ويقدم بيده الأخرى مساعدات إنسانية للبلدين معا، فيا للعجب !.

وأخيراً تمخَّضتْ السياسةُ وولدتْ القرار الدولي رقم 1701 بعملية قيصرية بعد أن حُقنت حيفا ونَهَاريا بصواريخ المقاومة لتعجيل الولادة.

وتعالى الآذانُ في سماء لبنان، ودقتْ الكنائسُ أجراسَها بمجرد وصول نقطة الصفر صباح يوم الاثنين 14 آب 2006 ميلادية والتي ستكون أيضًا نقطة لإعادة تشكيلِ الأهداف والأرقامِ وإدخالِ تعديلات على الخُطط العسكرية وإطالةَ أنيابِ ومخالبَ الذئبِ المسكينِ، وتعديل خُطط الثعالبِ داخلَ الغابةِ الكبيرةَ لنزع سلاحِ الخرفان الذين تمردوا على نواميس الطبيعة بشجاعتهم.

ورغمَ كلِّ شيء، رغمَ الألم، رغمَ الخيانة، رغمَ وحشيةِ الإنسانِ، غلبتْ الفئةُ القليلة، وانتصرـ الإيمانُ، وراح التاريخُ يحفظُ في صفحاته صمودَ رجالِ مخلصين عزَّ عليهم تحطيمِ بلدهم على يد المُغتصب، فراحوا يعلمون البشرـ دروسَ الوطنيـ ة والحرية والشجاعة، وهم ينشدون قصائدَ تستنهضُ القلوب المُتحجرة والهمم.

تذكرتُ أمي الحبيبة التي عاشتْ يومًا انتصارًا آخر، في زمن آخر،لا ريبَ أنَّها أحسّـــت بســـعادة عارمة عند انتزاعِ الجزائر لحريتها، تصـــورتها ترقصُ في الشوارع، وهى تزغرد بمرح وتغني الأناشيد الوطنية وتهتفُ بأعلى صوتها" تحيا الجزائر !" وعرفتُ لماذا كانتْ تعتبر ماضـــيها كنزًا ثمينًا زاخرًا بالعِبَرِ والصـــبرِ والشجاعة.

اقتحمتْ أختي منيرة فجأةً مُخيلتي وهى تتوســـطُ كوكبةً من الأدباء الجزائريين والعرب وحتى الأجانب الذين كتبوا عن الثورة التحريرية الجزائرية، وعرفتُ سرّهم جميعًا، فالقضـــايا العادلةُ هى منبعُ أفكارهم ولهذا تراهم يعطونها أهميتها في أعمالهم، وداخلَ أرواحهم المُرهفة التي ترى الجمالَ حيثُ لا يراه إلا أمثالهم من ذوي النفوسِ الشـــفَّافة التي تناضـــلُ لإخراجِ الجمالِ إلى الوجود .

وها هى شجاعة سعدية أميرة الذكريات المَطوية داخلَ جيبِ قميصي لا تزالُ أمامَ ناظري مرسومةً على وجه المرأة الجنوبية التي وقفت أمامَ مستشفى صور تنتظرُ رُفاتِ أولادِها الثلاثة بدون دموع ..

فما أشبه اليوم بالبارحة !

سبحانَ اللهِ حتى الحكايات تتكررُ عبرَ الزمن، حتى الآلام، حتى البشر..

تذكرتُ أيضًا والدي، أحسستُ أنِّي لم أكن ابنًا بارًا به، كان علىّ أن أعاونَه على توفيرِ قوت العائلة بإعادة الحياة إلى المزرعة التي أهملها بعد اشـــتداد المرض عليه، قبل ثورة نوفمبر المجيدة، كان والدي يعمل بفرنسا، وطيلة مكوثه هناك كان على اتصالٍ بالحركات الثورية التي كانت تنشطُ بصفة سرية، حيثُ كُلِّف بتعليق مناشـــيرَ تدعو فرنســـا للخروج من الجزائر، لكنه عاد إلى الوطنِ مباشرةً بعد اســـتدعائه من طرف حزبِ جبهة التحريرِ الوطني، وانضـــمَّ إلى صفوف المجاهدين، وبعد الاستقلال رَغِبَ أبي في العودة إلى فرنسا، لكن والدتي

رفضتْ مرافقته، فقد كان الجُرح لا يزالُ أخضرَ، ولم تكن فرنسا وقتها في نظرها إلا جلادًا قاسيًا .

*****

قال الطبيبُ مبتسمًا:

- الآنَ يمكنُكَ مغادرةُ المستشفى، أنتَ بخير.

قلتُ له بامتنانٍ:

- شكرًا !.

- اشكرْ اللهَ أيّها الشابُ.

فجأةً غمرتني سعادةٌ لا توصف، وأنا أبصرُ حسان يقتربُ منّي، ابتسم وهو يعانقني، سألتُه بفضولٍ :

- أين كنتَ ؟ ظننتُكَ ميتًا.

- لا لم أصبْ بأذى.

- كيف عرفتَ أنّي هنا ؟

- رأيتُكَ صُــدفةً وأنا في طريقي لزيارة جريحٍ آخرَ نُقلَ إلى هنا، لحظتها كنتَ نائمًا فلم أوقظك، إلا أنّي حمدتُ اللهَ على سلامتك يا صَديقي .

- لكن لماذا لم ترجعْ إلى بيروتَ ؟

همس في أذني قائلًا:

- كنتُ هناك.

- أين؟

- مع أخي والسلاح.

- الشجاعة تسري في دمائكم وراثيًا .

- في سبيل الله والوطنِ يهونُ كلَّ شيء، بيتُنا الجميلُ هُدِّم عن آخره بعد نهايةِ الحر بِ، وقف أخي على الأطلال وهو ينظر إلى السماء بعينين مبللتين بالدمع، لكنَّه لم يقلْ أكثرَ من ذلك، كانَتْ نظرتُه أكثرَ بلاغةً من الكلام، كان حزنُه عميقًا، فقدْ فقدَ أحبّ أحبائه.

*****

الأيام تفرّ بسرعة كما تفرّ أوراقُ الأشجارِ الميتة تحتَ ضربات الرياحِ العاتية تاركةً خلفها الكثيرَ من الأفراح والأتراحِ التي تنقضي بدورها رويدًا رويدًا، لتعودَ بقوة من حين لآخر إلى ذاكرةِ الإنسان، لكنها تغوصُ من جديد في عمقِ الزمن .

ظننتُ أنِّي سأغادرُ لبنانَ وهى سعيدةٌ بانتصارها، لكنِّي تركتُها حائرةً مترددةً، تركتُها في مخاضِ عسير، ساحةُ الشهداء حُبْلَى بالمتظاهرين، وسامي ينظرُ من أعلى متأملًا رُفقة الأنبياءِ والقدِّيسين والشهداء.

لكن الأجملَ أنِّي حملتُ في عروقي دماءَ لبنانية جعلتني أحسّ بأنَّ المحيط الهادر قد عانقَ الخليجَ الثائرَ في عروقي، وبأنِّي عربي تجسّدتْ فيه الوحدةُ المفقودة، لكنْ كلمات سامي توغَّلتْ في داخلي، وحملتني على أجنحتِها إلى كلِّ أصقاع الأرض؛ لأبلغَ الرسالة إلى البشر.. كل البشر..

لكن هل يستوعبُ البشرُ كلمات الرسالة ؟ هل تتوقفُ الحرب؟ لا أظن !! فبذرتُها الأولى زرعها قابيلُ حين طوّعَتْ له نفسُه قتلَ أخيه هابيل، فسقطَ في

فخ الأنا والهوى، وفي فخ الشيطان الذي سخَّر عمرَه لغواية آدمَ وذريته، لتتبرعم البذرةُ وتنمو وتمتدُّ جذورُها عميقةً داخلَ تربةِ خصــبةِ ســقتَها أوهامُ العظمة والخلود والتسلط، حتى صارتْ البذرةُ نباتا شَيطَانيا يُغطي مساحات شاسعةً من تاريخِ البشرــ وها هى الأحلامُ والأزهار تقتلُ كلَّ يومٍ ألف مرَة، وهاهو الحبّ يُغتالُ في بقاعٍ كثيرة من الأرض بأنانية البشرِــ التي ما فتئتْ تفورُ وتطغى..

آهِ يا ســامي ! لو أنَّ البشرــ يفقهون كلماتِكَ الأخيرة لكنَّا الآنَ نحيا في سلام.

ربما كان ذلك ممكنًا لو لم يقتل قابيلُ أخاه هابيل ..

فجأةً أتاني صوتُ قابيل من الماضي السحيقِ مُحتجًا ومُندداً في وجهي :

- أخطأتَ أيُّها البائسُ، كان عليكَ أن تقولَ هذا لو لم يعصِ إبليسُ اللهَ، فأنا لم أكنْ البداية، ولم أكنْ سببَ الحكاية، لم أكنْ سببَ الحربِ، كانت البدايةُ خطيئةَ والدي وضعفِه أمامَ رغبة أمي، وحيلة شيطانٍ حاسد.

طردتُ هذه الفكرةَ الغريبة من ذهني مغيّراً عناوينَ أفكاري، ســأعودُ إلى فاتنتي جيجل قريباً، وسأرى أهلي من جديد، وصِحتُ بصوتٍ مرتفع:

- حمدًا لكَ يا ربِّ .. شكرًا لكَ يا ربِّ ! .

الفصـل السادس

" شعــاع الأمـل "

ابتعدتُ عن شمسي وقمري و أنجمي مقتربًا منها من جديد...

تركتُ بلدي عائدًا إلى بلدي...

غادرتُ أهلي إلى أهلي، وقلبي يعتصر حنينًا إليهم جميعًا...

رجعتُ إلى مدينتي " جيجل" وأنا أحملُ داخل ذاكرة عقلي المركزية ذكرياتِ وحكاياتِ ومآسي، وداخل نفسيـ قوةٌ وحكمة حفرتها مشــاهدُ الدمار وصمودِ الحجر والبشر...

عدتُ وصـــدى يُدوِّي من داخلي" واعتصـــموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا".

عدتُ وحلم جميل يُشــعرني بقشــعريرة لذيذة تدغدغُ عواطفي، كيف ستستقبلني "حنين" ؟ لا أظنُّها سترتمي بين أحضاني، لكَنَّها ستسعدني بنظرات عينيها المشتاقة، سأعترفُ لها بأنِّي ظلمتُها، وسأطلبُ الصفحَ منها، وسأخبرُها بأنَّ طيفَها منذُ أنْ قرأتُ رســالتَها رافقني طيلة مشــواري، وخرج معي عن حدود الزمانِ والمكانِ إلى برزخٍ يفصـلُ الموت عن الحياة ليعيدني إلى الواقعِ بقوةِ إلهية خطَّها القدرُ على اللوح المحفوظ.

أوقفتُ أفكاري الصاخبة كالسيل الجارف صارخًا في داخلي :

- توقف .. توقف يا منير، لا يجبُ أن تتخذَ من "حنين"مورفيًنا آخر، لابد أن تفكرَ كثيراً قبل أن تعترفَ لها بحبكَ، إنَّها أعظمُ من أن تجرحَها.

قد تكون مشـاعرُك مجردَ إعجاب كبّرتُه عدسـةُ الأحداث في خاطركَ فخِلتَه حبًا. فكر، فكر جيدا يا منير..."

ع لى مشـارف مدينتي الجميلة، تذكرتُ أختي منيرة التي ما انفكتْ رغم كلِّ شيء تحلمُ وتحلَم، ألا زالتْ يا تُرى كما كانتْ أم أنَّ الأيّام قد غيّرتها في غيابي، كتبتْ أختي عن صمود الجزائرِ في مواجهة التشتت، وعن أملها في عودة الأمنِ إلى ربوع الوطنِ، وعن الحب والسلا م، أذكرُ أنَّها كتبَت روايـةً حزينة عن مأسـاة عائلات المفقودين، لا أنكرُ أنها جعلتني أبكي لبكاء شـخصـياتها، لكن أختي مزَّقتها وَرمتها وهي تقول لي : " لا أريدُ أن أتألمَ أكثرَ، جنونُ بطلِ الحكاية يُحزنني ويمزقني، لا أريدُ أن أقرأ الروايةَ مرة أخرى ...".

مزّقتْ أختي الورقَ، ومزّقتْ مشروعَ السلام...

لكن ها هى أحلامُ أختي بدأتْ تتحقق...

ها هى الشـجرةُ العريقة تنظرُ من جديد نحو القمرِ المضيـء بتفاؤل، ورغمَ الرياحِ العاتية التي ما فتئتْ تعبثُ بأغصـانِها وأوراقها إلا أنَّها سـتبقى صامدةً رغمَ كلِّ شيء...

لقد أصـبحتْ اللوحةُ جاهزةً، لكن هذه المرةَ لن تكونَ للبيع بل سنحتفظُ بها في قلوبنا...

ها هى فكرةُ المصالحة الوطنية بدأتْ تأتي بثمارها...

وها هى جزائرَ العزة والكرامة تقفُ على رجليها من جديد، وتتصـدى للموت بقوة وتحد وأمل .

فكلنا إخوةٌ، لابد أن نتسـامحَ، لابد أن ند فنَ أحقادَنا لتبقى الابتسـامةُ على الشفاه، لابد أن نحبّ ونحب...

آنَ لنا أن نردد َ على لسان النبي عيسى عليه السلام :" المجدُ للهِ في العلا وعلى الأرضِ السلامُ ...".

آنَ لنا أن نجسِّدَ تحيةَ الإسلامِ ...

آنَ لنا أ ن نبددَ السّحبَ لتسطعَ أشعة الشمس من داخل القلوبِ، ونصبحَ مسلمين فعليين، فالمسلمُ من سَلِمَ الناسُ من لسانه ويده، والمسلمُ من يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه.

آنَ لنا أن نسمعَ صوتَ الشهيدِ سامي، وأصواتُ البراءة الهادرة من جميع أقطار العالم !!...

آن لنا أن نصنع السلام !!...

كنتُ أسيرُ ببطء رُفقة أ فكاري الجارفة، وأوراقُ الخريف الذابلة تتساقطُ على رأسي، نظرتُ إلى الأعلى، كانت الأشجارُ المصطفة على طولِ الرصيف قد صارتْ شبه عاريةٍ في ذلك اليوم الخريفي البارد.

بدأتْ زخاتٌ خفيفةٌ من المطر تتساقطُ على رأسي، بينما راحتْ الأغصانُ تتراقصُ على إيقاع النسمات الباردة، أيقنتُ أن الجوَّ يُنذرُ بقدوم عاصفةٍ، فأسرعتُ الخُطَى نحوَ المنزل .

*****

وجدتُ باب الشقة مفتوحًا فدخلتُ بهدوء، رأيتُ أمي تمسحُ بقايا الغبار عن خزانة ملابس غرفتها، وكأنَّ قلبها الشفَّاف المُفعم بالعطف والطهر قد عكس أمامَ عينيها صورةَ الغرفة الخلفية فالتفتتْ بغتةً نحوي، سقطتْ قطعةُ القماش من بين يديها أرضًا، وتدخلتْ عاطفةُ الأمومة المقدسة دونَ استئذانٍ لتحملها إلى أحضاني ..

كانت لحظةٌ لا تُوصـف، دموع أمي المالحة راحتْ تغسـلُ وجهي بحبٍ وعطفٍ وشوقٍ وألمٍ ..

وكانت لحظة أخرى لا تُوصف، دخل والدي الغرفة، ولما رآني حيّاني تحيةً باردة بإشـــارة من يديه، وخرج دون أن ينبسَ بكلمةٍ، وكأنَّ عودتي إلى البيت لا تعنيه.

أحسستُ بالحزن، إلا أن أمي ربتتْ على كتفي، وقالت بعطفٍ :

- لا تحزنْ يا ولدي، والدُكَ في الآونة الأخيرة صـار يعاني من عُزلةً غريبة، لم أعدْ أفهمه، بالكاد صار يكلمنا، ليكن اللهُ في عونه...

خيّم صـــمتٌ خفيف على الغرفة قبلَ أن تســـتأنفَ حديثها وهى تتفحصني بشوقٍ وقلق:

- أين كنتَ يا ولدي ؟ اشتقتُ إليكَ كثيراً، ما بها قدمك ؟

ابتسمتُ بحنانٍ، وأجبتُها قائلا:

- هوِّني عليكِ يا أمي، أنا بألف خير.

- وقَدَمُك ؟

- حادثٌ بسيط جدا.

لكن أمي لم تقتنعْ بكلامي، وراحتْ تنظر نحوي بريبة.

قلتُ لها بحماس:

- أمي، سأتوقفُ عن السفر في الوقت الحالي، لقد قررتُ أمرا.

نظرت إلىّ بتعجبٍ وسألتني:

- ما هو؟

- سـأعيدُ الحياة إلى مزرعة والدي المهملة، سـأجعلُ منها جنةً فوقَ الأرض إن شاء الله.

غمرتْ السعادةُ وجه أمي وقالتْ :

- اذهبْ إلى أبيكَ، أخبره بالأمر، لطالما تمنى أن تقومَ بذلك.

اتجهتْ ووالدتي إلى قاعة الاستقبال، وجدنا والدي جالسًا على الأريكة، نظر إلينا بطرفي عينيه دونَ أن ينبسَ بكلمة واحدة ، جلستُ إلى جانبه في حين بقيتْ أمي تنظر نحونا بعطف، أمسكتُ بيده المرتَعشة، وقلتُ له بحنانٍ :

- والدي، كيف حَالُكَ ؟

- بخير.

- أريدُ أن أطلب منكَ معروفا.

رمقني بنظرةٍ تكاد تكون ميتة وقال:

- ما هو ؟

- أريدُ أن أعملَ في زراعة الأرض بتاميلة .

استقام في جلسته، وقد لاح طيفٌ من السعادة على سحنته :

- حقًا ما تقول يا منير ! إنها معجزةٌ من السماء، أنا سعيد بهذا الخبر. لطالما تمنيتُ أن تعودَ إلى رشدك يا ولدي.

- فكرتُ كثيراً في الأمر، العملُ عبادة يا والدي، وزراعةُ الأرض لن تنقصَ ذرةً من شأني، فمَنْ أكون أنا مقارنة مع رسل الله تعالى الذين مارسوا جميعهم مهنة الرعي...

قاطعني والدي قائلا:

- وهل توقفتْ يا ولدي عن شرب الخمر ؟

أحسستُ بالخجل من نفسي، لكنِّي أجبتُه والعرق يتصببُ من جبيني :

- هل كنتَ تعلمُ بالأمر؟

- طبعًا.

- توقفتُ عن ذلك منذ مدة.

- جيد، أرى أن أمورنا تتحسن، حانَ وقت صلاة الظهر، سنتمُ حديثنا لاحقًا.

رمقني بنظرة غريبة، وقال وهو يغادرُ القاعة:

- هناك آلافُ من الأسئلة عليكَ بالإجابة عنها.

جلست أمي إلى جانبي، وهى تتفرسُ في وجهي بعاطفةِ جيّاشة ثم قالتْ :

- سيسألكَ عن سبب غيابِكَ الطويل .

- توقعتُ ذلك.

ذهضتْ أمي بدورها وهى تقول:

- فلنقم يا ولدي إلى الصـــلاة، ولنشـــكر اللهَ على نعمه :" كل شَـــدَّة وْمَبَعْدْهَا فرج يا وْلِيدِي ".

اتجهتْ نحو الحمام،وهى تُنشدُ الكلماتِ التي ألفتُها منذ صغري:

" الصلاةُ مفتاحُ الجنَّة، وسيِّد الشْهُور رمضان، ويا سَعْدُو اللي صلى وصام وشْفَعْلُو قُرآنُو ..."

ارتميتُ على فراشي، اسـتسـلمتُ إلى رياح عاتية من الأفكار المتضـاربة، سأرى حنين و سأطلبُ الصفحَ منها، و سأعلمها بأنِّي سأطلب يدها يومًا ما حين تحينُ الظروف، طرتُ نحو مسـتقبلي فرأيت أطفالي يحومون حولي بمزرعة تاميلة. أحدهم راحَ يقطفُ أزهارَ البابونج البيضاء، والآخر لم يتوقفْ عن الركضِ خلفَ الكلبِ الذي سأربيه لحراسة المنطقة، وطفلتي تجري نحوي وهى تصيحُ " بابا بابا، أمي تناديك لتناول الغذاء " ، سقَطتْ بين الأعشابِ فأسرعتُ إليها، و حملتُها بين يدي، وقصـدت البيتَ الذي سـأبنيه من مجهودي وعرق جبيني، وتبعنا الصـبيان وهما ينشـدان النشـيد الوطني في حماس، وهناك أمامَ البيت أعادتْ علينا حنين أسـطوانتها المعتادة طالبة منا نزع الأحذيةِ المتسـخةِ بالطين قبل دخولِ المنزل...

اسـتيقظتُ من أحلامي على صـوت أختي منيرة، وهى تقول بصـوت متهدج :

- منير، لقد عدتَ ، حمدا لله على سلامتكِ، لقد خِفتُ عليكَ كثيراً.

فتحتُ عيني المتعبتين بتثاقل، لقد كنتُ أحلم، اسـتقمتُ في فراشي ،وعانقتُ أختي بسعادة.

- حين كلمتني هاتفيًا من لبنانَ، أحسستُ بخوفٍ كبيرٍ يلفني.

ابتسمتُ وقلتُ لها:

- ألم تفكري في كتابة رواية عني؟

- فكرة جيدة،أ صد قك القول أن خوفي عليكَ قيّدَ كلَّ أفكاري، لكن وبما أن بطل الحكاية أمامي فسأفكّرَ في الأمر بجدية.

- سـأمدُّك بكلِّ التفاصـيل الضرـورية، توجد كلماتٌ بقيت راسـخة في ذهني أتمنى أن تدوَنيها.

- حسنًا، سأفعلُ .

كنتُ أودُّ أن أسألَها عن حنين، لكنَّها سبقتني إلى الكلام قائلة:

- كلمتني أمي هاتفيا منذ قليل، وأخبرتني بعودتكَ فأتيتُ على جناح السرعة كيِ أراكَ، ا شتقتُ إليكَ كثيراً يا أخي، خلالَ غيابِكَ أحسستُ بألم شديد بقدمي اليمنى، ولما زرتُ الطبيب أخبرني بأن قدمي بخير، عندها علمت أن أمرًا ما قد حصل معكَ.

- متى كان ذلك؟

- يوم الثلاثاء صباحا من الأسبوع الأول من شهر أوت.

- نفس التوقيت الذي أصبتُ فيه بشظايا قذيفة.

- سبحانَ اللهِ ! منذُ الصِّغرِ وآلامُنا مشتركة.

- نحن توأمٌ يا أختي.

- والآنَ، هل تحسنتَ ؟

- أنا بخير.

أحسستُ بالخجلِ وأنا أسألها:

- كيف هى حنين؟

- حنين ليست هنا.

- أين هى ؟

- سافرتْ .

أحسستُ بقلبي ينبضُ بشدةٍ، وسألتُها بعجلة :

- إلى ألمانيا؟

- لا،بل إلى منطقة بْنِي زِيدْ بالقُل. عندما ازدادَ مرضُ جدها إبراهيم واقترب أجلُه، طلب منها نقلَه إلى مرتعِ طفولته.

- وكيف حال الشيخ إبراهيم الآنَ ؟

- توفي منذ أسبوعٍ، ودُفِنَ هناك.

- إنَّا لله و إنَّا إليه راجعون ، وهى كيف حالُها ؟هل لديكِ معلوماتٌ عنها؟

- إنَّها تريدُ البقاءَ مع أهلها هناك.

- حسنًا، سأزورُها لأقدمَ لها واجب العزاء.

*****

بلغتُ أطرافَ بلدةِ بني زيد، والشــمسُ قد مالت إلى الغروب، والحقولُ والبساتين قد استسلمتْ لنَسماتِ المساء.

دخلتُ مقهى صغيراً، وسألتُ صاحبَه عن منزل الشيخ أحمد جد حنين فدلَّني على بيت قريبٍ من المكان، أحسستُ بارتباكٍ شديد، وأنا أدقُّ الباب، أطلَّ وجهُ شابةٍ في مقتبل العمر.. سألتْ :

- مَنْ تريدُ ؟

- حنين هنا ؟

- نعم. مَنْ أقولُ لها ؟

- جئتُ لتقديم التعازي، الشيخ إبراهيم رحمه اللهُ كان عزيزاً علينا كثيراً.

لم تسألني أكثر رغمَ أشعة الفضول التي أطلَّتْ من مقلتيها، أدخلتني إلى غرفة صغيرة وخرجتْ، وبعد فترةٍ عادتْ تتبعُها حنين التي فغرتْ فاها عندما أبصرتني.

نهضتُ بسرعة، وقلتُ في حياء:

- عظَّم اللهُ أجرَكم.

لم تتفوه حنين بكلمة، إلا أن حُمرةَ الخجلِ لوّنت خديها، قالت مرافقتها بأدبٍ، وهى تخرجُ من الغرفة :

- أنتَ ضيفُنا، يبدو أنكَ قَدِمتَ من جيجل، اجلسْ واسترحْ، سأخبرُ والدي.

أخفتْ حنين اضطرابَها خلفَ ستارٍ سميكٍ من الهدوء وسألتني:

- كيف تمكنتَ من الوصول إلى هنا ؟

- بواسطة سيارة نقل.

- أقصد كيف فكرتَ في المجيء إلى هنا ؟

- جئتُ لأطلبَ الصـــفحَ منكِ على ما بدرَ منِّي، يومها لم أكنْ في تمام وعيي .. فهل تسامحيني؟

- سامحتُكَ لحظتها.

نظَرتْ إليّ بعينين منكسرتين غارقتين في حزنٍ عميقٍ وقالت:

- تألَّم جدي كثيراً في حياته، وآنَ له أن يستريحَ .

رفعتُ نظري إلى الباب، وأنا أسمعُ صوتَ أقدامٍ تقتربُ منَّا، فرأيت رجلًا جميلَ القسماتِ ومفتولِ العضلاتِ يدخلُ الغرفةَ.

قالتْ حنين تخاطبه:

- أعرِّفُكَ على جارنا منير، عندما عاد من السّـفرِ، وعلم بوفاة جدي جاء لتقديم واجبِ العزاء.

- مرحبًا أيّها الشابُ.

قالتْ حنين:

- إنه والدي، جاء من ألمانيا عندما علم بوفاة جدي، وهو يريدُ أخذي معه.

أحسستُ بالقلق، وأنا أسمعُ الرجلَ يقول بعفوية:

- حان الأوانُ كي أكفرَ عن ذنبي، تركتُ ابنتي منذُ فترة طويلة دونَ أن أســـأل عنها، لكن طيبة ابني آدمَ جعلتني أعترفُ بخطئي تجاهها، عندما عَلِمَ بأنَّ له أختًا هنا جاء لزيارتها، وبعد عودتِه ألحَّ عليّ أن أقنعها بالعيش معنا بألمانيا.

سألتُها بانزعاج:

- وهل ستذهبين إلى هناك؟

أجابتني بترددٍ :

- سأفكر.

دخل شيخٌ مقوسُ الظهر الغرفة، وهو يقول بمرح:

- أهلا بك يا ولدي، أخبرتني ابنتي الصغرى عن مجيئكَ فجئتُ لأراك.

صافحني بحرارةٍ، وعيناه تسألان حنين عنِّي.

- إنه جارنا منير أخ منيرة التي حدثتكَ عنها ســابقا يا جدي أحمد، جاء لتقديم تعازيِه.

قال الشيخُ بطيبة:

- "جارُكِ لقريب خيرٌ من خوك لبعيد " . فيك الخيرُ يا وليدي.

بعد أن قدمتُ التعازي، سألتُ الشيخَ :

- هل يوجد فندق هنا ؟

أجابني بصوتٍ مرتفع بشوش :

- ماذا ؟ فندق ؟ أنت ضيفُنا يا ولدي.

عندما أخبرتْ حنين أقاربَها بما أخبرتَها أختي منيرة عن رحلتي الأخيرة إلى لبنانَ، شبّ نقاشٌ كبير بيننا حولَ مختلف الأحداث السياسية العربية، حتى أننا لم ننتبه إلى أن الساعةَ تجاوزتْ منتصف الليل.

في الصــباحِ الباكرِ ودعتُ الجميعَ، وابتعدتُ عن المنزل، وأنا أتأســفُ في داخلي لعدم تمكني من البوحِ لحنين بمشــاعري، إلا أنِّي أحســســتُ بالســعادة تغمرني ،وأنا أسمعُ صوتَها يأتيني من الخلف:

- منير، انتظرْ .

- أسرعتُ نحوَها، وأنا أحمدُ اللهَ في سرِي.

- بلغْ سلامي الحار إلى أختكَ منيرة، أخبرها أنِّي سأشتاقُ إليها كثيرا.

- هل ستسافرين إلى ألمانيا؟

- وما رأيكَ أنتَ؟

- أعترف لك يا حنين بأنِّي أحسّ بإعجابٍ كبير نحوك، لكنِّي لن أســتطيعَ الآنَ طلبَ يدك؛ فظروفي الماديةُ لا تسمحِ بذلك، لكنِّي أعدكَ إن كان ما تشعرين به نحوي مثلماَ أشعر به نحوكِ أنْ أتقدَّمَ إليكِ بمجرد تحسنَ أحوالي.

أسبلتْ جفنيها في خجلٍ وهى تقول :

- سأذهبُ مع والدي، لكن لفترة قصيرة فقط، سأبقى على اتصال مع منيرة من هناك، وأعدكَ بأنِّي سأعودُ حينما تطلبَ منِّي ذلك.

- وعدٌ حر.

ابتسمتْ وهى تقولُ :

- بل وعدُ حرّة.

صمتَتَ ثم أردفتْ:

- الآنَ علىّ العودة إلى المنزل، وداعًا.

- لا تقولي وداعا بل إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

*****

عدتُ إلى البيت مُنهكَ القوى، جهد يومٍ بأكمله في زراعة الأرض أثقل تحركاتِ أطرافي السفلية التي راحتْ تتقدم في حركاتٍ عشوائية، في حين راح جسديَ يتمايلُ كما كان يتمايلُ ذاتَ يومٍ من شدة السُكر، لكن لا وجه للشبه بين الحرام والحلال، الخمر رجسٌ من عمل الشيطان، أما العملُ فعبادة، كانت رائحةُ العرق تفوحُ من جسدي بينما راحتْ معدتي تُنددُ بشدة إهمالي لرغباتِها النَّهمةِ والمشتاقة إلى الطعام، لم أعرْ تنديدَها أيَّ اهتمامٍ، كان هاجسي الأكبرُ هو الخلودَ إلى الراحةِ والارتماء فوقَ فراشي .

دلفتُ إلى غرفتي الصغيرة، كنتُ أنتظر أن أراها مبعثرةً كما تركتُها صباحًا فوالدتي لم تعد تقدر على أداء كلِّ الواجبات المنزليةِ بمفردها، وأختي منيرة أصبحت بدورها تتأخرُ عن زيارتنا بحجة كثرة انشغالِها في العمل، لكن المفاجأة أذهلتني، ديكور جديد استقبلني،

رائحةٌ عطرة غَزَتْ خياشيمي، لمساتُ أناملِ أختي منيرة في كل مكان، على الستائر الجديدة الشفَّافة التي زُيِّنَ بياضُها بأزهارٍ بنفسجية صغيرة تُدخل السرورَ إلى العين، لتنقله السيالات العصبية إلى خلايا المخِ، ويصلُ في النهاية إلى القلب فيفعمه بالأملِ والأنس والمحبة والضياء، غطاءٌ سريري بنفس ألوانِ الستائر، مزهرية على طاولة النوم تطلُّ من فوهتها ورودًا حيّة فوّاحة، ولوحةٌ زيتية صغيرة تلتصقُ بالجدار المقابل لباب الغرفةِ رُسِمَتْ عليها أزهار ..

أيضًا...أزهار وأزهار.. منذُ شهورٍ والحطامُ يحاصرني، كان التفكيرُ في مثل هذا البذخِ ضربٌ من الخيال ونوعٌ من الجنون .

أحســستُ بيدين ناعمتين تحاولان التسـللَ نحوَ عيني، فأمسـكتُ بهما بصورةِ مباغتة وبحنانٍ كبير، واستدرتُ إلى الخلف، وقلتُ بامتنان :

- شكرا لك منيرة !.

- العفو يا أخي، كان علىّ أن أغيِّرَ ديكور غرفتك، ففي التغيير حكمةٌ تبررها فلسفةُ الحياة، إنَّه يُضفي لمسةً عطفٍ على النفس المهمومة الحائرة، ها هى نتائجُ التغيير ترتســمُ على مقلتيكَ اللتين تعكســان في هذا الوقتِ بريقًا جميلا لم ألمحه فيهما منذُ سنوات.

جذبتُ أختي نحوَ سريري، أجلســتُها قبالتي، وطبعت قبلة عرفانٍ على جبينها، نظرتْ نحوي بعطفِ وقالت:

- هل ترغب في أن تجدَ غرفتك منظمةً وجميلة كلَّ يوم عند عودتك من العمل؟

أجبتُها وأنا أتجاهل عن قصدِ ما انطوت عليه نفسها:

- طبعا يا أختي، هل تتكرمين بهذه المهمة؟

- أنا، بالطبع لا...

- لكن أمي مُسنةٌ ولا أريدُ أن...

قاطعتني بحزمٍ، وقالت دفعة واحدة حتى تقطع عن لســانها محاولة التردد:

- ألم يحن الوقت كي تتقدم لطلب يد حنين، أحسّ بالتعاطف معها، كلمتني البارحة، وسألتني عنكَ .

- طبعا أنت من ستخبرين والدتي بحدث الساعة، وستكونين البطلة التي حرّكتْ مشاعرِ أخيها الجامدةِ والمتصلبةِ كالصَّخرِ العتيدِ بثرثرتها المعتادة والمحببة.

تجهّم وجهُها وقالت:

- أنا لا أمزحُ، لا تتركني، أتوسلُ إليكَ كي توافق...

قاطعتُها قائلا:

- حسنًا، سأفكر.

- فكِّرْ جيدًا، لكن عليكَ أن تسرعَ باتخاذ قرارِكَ قبل أن يخطفها منك أحدُهم. أحوالُكَ المادية يا أخي في تحسّن، فاغتنمْ الفرصةَ .

قلتُ أُحدثُ نفسي: " كم كنتُ أحمقًا، وأنا أكسرُ قلبَ حنينِ النابض بالحب والحياة وَالقوة رويدًا رويدًا انتقامًا من امرأة أخرى ! لقد عميتُ بمحض إرادتي عن الحقيقة التي غيّبها عن عقلي حُلمٌ مستحيلٌ هوى ملتفًا بكذبة كبيرةٍ مُخلفًا في داخلي هزيمةً حربيةً لا معنى لها ".

راحتْ أختي تتفرسُ ملامحي لتستشفَ أغوارَ نفسي، ثم قالتْ بجدية:

- حسنًا فكِّرْ، ستجدني إن شاء الله إلى جانبكَ حين تقررُ أمرًا ما لكن بشرط واحدٍ .

- ما هو؟

- أن تفي بوعدكَ، وتمدَّني بتفاصيل رحلتكَ إلى لبنانَ، عليك أن تُسهلَ مهمتي بالإجابة على كلِّ أسئلتي، ستكون نقطةُ البداية هى آخرُ جزءٍ من الرواية.

- لك ذلك.

سكتتْ أختي عن الكلام المُباح، ثم استرسلتْ في حديثها، وأطيار الأحلام تحومُ أمامَ عينيها البرّاقتين :

- التحولاتُ السياسيةُ والعسكريةُ والاجتماعيةُ والاقتصاديةُ التي مافتئتْ تحدثُ بسرعة مُفرطة تُثيرُ زوابعَ التغيير في داخلي، وتحولني تدريجيا م ن إنسانة فاشلة بلا نضالٍ ولا مبادئ إلى أخرى أكثر نضجا وتفهما لقوانينِ الحياة التي صاغها اَللهُ بحكمةَ فوقَ كلِّ حكمة، وبعلمٍ فوقَ كلِّ علم، وتدفعني للبحث عن المعرفة والجمال.

توقفتْ " شكسبيرتي " عن الاسترسال في الحديث، رمقتني بنظرة فاحصة كأنَّها تستغر بُ عدم زجري لها كالعادة عندما كانتْ تُكثر من ثرثرتها، لكن هذهَ المرة استأنستُ فعلا إلى كلامها؛ لأنَّه في الأوقات الأخيرة فهمتُ أنَّ فلسفتها في الحياة لم تكن سخافاتِ فتاة طائشة بل هى خدمةٌ لقضايا عادلة.

بعدَ صمتِ حذرٍ، واصلتْ تقولُ :

- يا أخي، لم أعدْ أطيقُ دفنَ حقدي على ظلم الإنسانِ لأخيه الإنسان، لم أعد أستطيعُ خنقَ الكلمة على شفتي، على أن أنظفَ ريشتي من بقايا الصدأ، سأنفشُ كلَّ المقابر الساكنة في عتمة نفسي، وأخرجُ كلَّ جثث الكلمات، وأبعثُ فيها الحياةَ من جديد، آنَ لي أن أمزِّقَ برصاصاتي قانون الغاب والقوانين الشيطانية التي تحملُ أقنعةً بأسماء جميلة مختلفة؛ لتغطية مطامعَ شخصية، وعقد نفسية متأصلة منذُ الزمنِ السحيق في أعماق البشر.

فجأةً صمتتْ دونَ سابقِ إنذار، مدتْ بصرَها نحو مكتبي، واستقامتْ بسرعة فاسحةُ المجالَ لجسدي المُنهك؛ كي يتمددَ على السرير بحرية مطلقة وغير مشروطة، رحتُ أرمقُها بانبهارٍ وهى تجلسُ في خشوعٍ إلى أوراقي

وأقلامي؛ لتحاولَ سجنَ فراشات الأفكارِ التي خطرتْ على ذهنها للتو حتى لا تطيرَ بعيدًا عنها، راحتْ تخطُّ سَطورًا وسطورًا، بلغ سمعي نداءَ أمي يطلبُ منها المساعدة، نهضت أختي مرغمةً، وغادرتْ الغرفة.

رغمَ إحساسي بالإرهاقِ إلا أنِّي اتجهتُ على بساطٍ من ريح الفضولِ نحو مكتبي، رحتُ ألتهمُ السطورَ السوداءَ على الصفحة البيضاء بعيني ووجداني ما كتبته أختي الفيلسوفة.

"اليومُ تبدأُ الحكايةُ وشتاء هذا العامِ يقتربُ من موعد الرَّحيلِ إلى الماضي جارٍ ا معه أحداثَه الصاخبة، وبقايا ذكرياتٍ ستبقى محفورةً على سجلِ التاريخ ..

القلمُ بين أناملي مدفعٌ، والكلماتُ قنابلُ نارية في وجه الظلمِ، . لن أوقفَ إطلاقَ النَّارِ بعدَ الآنَ، ولن أقبلَ على طاولتي أيّ قانونٍ أو قرارٍ مستورد، أرفضُ أن تُغتالَ سنينٌ من أحلام الصغارِ البريئة، أرفضُ أن تُغتالُ البسماتُ والأشواقُ والكلماتُ والذكرياتُ بأطماع الكبار الرهيبة...

سأكتبُ يا أخي عن أحلامكَ الصغيرة والكبيرة، عن صراعكَ الداخلي ضدَ الشرِ لطرق بابِ الخير، مع الأملَ لهزم قوى الفشل، ضدَ الموتِ للاستمرارِ في الحياة، ضدَ شبحِ هزمكَ سنينًا لتهزمَه في نهايةِ المطافِ بقوةِ الإيمانِ وبحبِ صادقٍ خالد قد يعيشُ حتى ما بعد الموت، سأكتبُ عن ثورةِ ضميركَ، ثورة ضدَ الرذالةِ والانزلاق، سأكتبُ عنكَ، وعن رموزِ الحبِّ والنضال، وعن نجومٍ سطعتْ لتشقَّ الليل الحزين وتفعمه بالأملِ والنصرِ والكرامةِ والطمأنينةِ وحبِّ الحياةِ والسلامِ .

سأكتبُ يا أخي حكايةَ الضَّعفِ الإنساني والقوة المنبثقة من هذا الضَّعفِ ..".

*****

البردُ قاسٍ مثل القلوب...

ميناءَ بو ادِّيس هادئ...

وأنا أيضا أحسَّ بالهدوء رغمَ البرد، وربما بسبب البرد، على شاطئ كُتامة صــار كلُّ شيء أمامَ عيني فاتنًا ورائعًا، رِحتُ ألتقطُ الأحجارَ البيضــاء الصــغيرة فأمســحُ عن سَــطحها الأملس بقايا الرمال الندية، ثم أضــعُها في جيبِ سروالي، ســتكونُ صــالحةً لأمرٍ ما، قدَ أحتفظُ بها لَأزيِّنَ آنيةَ النباتات الطبيعية في شُرفة شقتنا، وقد تصيرُ لعبةً بين أيدي ولدي أختي سليمة، كما يمَكنُ أن تصبح لوحةً فنيةً من لوحات أختي التوأم منيرة ..

جلســتُ على الرَمالِ بعد أنْ أعياني الســيرُ، نزعتُ حذائي لأنفضَ منه حبيباتِ الرّملِ التي تسـللتْ إلى داخله دونَ اسـتئذانٍ، ورحتُ أتحسـسُ الرِمالَ بأطرافِ قدمي، أحسستُ بسعادةِ الأطفالِ وأنا أبني قَصرًا صغيرًا ..

شعورٌ بالرضا والراحةِ راحَ يتسلقني بلا عناء ..

فالحريةُ كنزٌ لا يفنى ..

والحياةُ نعمةٌ كبرى من نِعَمِ الإلهِ التي لا تُحصى ولا تعد...

ورغمَ جشعِ البشرِ ..

ستبقى بلادي هى الحنانُ ..هى الأرضُ ..هى الأمُ ..

ستبقى بلادي هى الجمالُ .. كل الجمالِ ..

ابتسمتُ بتعاسة، وأنا أتذكرُ لقطات من سقوطي الحر، آنذاك لم يكنْ كلُّ هذا الجمالِ ليعنينيَ لأنِّي لم أكنْ أعرفَ حقيقةَ الحبِّ والجمالِ، لم أكن أعرفَ حقيقةَ ذاتِي، كنتُ أنانيًا أريدُ الأخذَ فقط، ولا أفكرُ في العطاء .

البحرَ الأبيضُ المتوسطُ يمتدُّ أمامي بفتنته الأزلية، الشمسُ استسلمتْ كليةً للسَّحبِ التي راحتْ تتحركُ في كثافة وسرعة على صفحة السماء، سيمفونيةُ الأمواجِ المتقطعةِ راحتْ تتسللُ إلى جهاز سمعي، ورائحةُ يودِ البحرِ ما انفكتْ تملأ أنفي، وترسلُ إلى مخي شحنات راحتْ تثيرُ خيالي لتطيرَ به إلى زمنٍ آخر، ومكان آخر من الكرة الأرضية، فأشَمَّ رائحةَ البارود والدخانِ وعفونة الجُثث المتفسخة، وأشاهدُ أطنانًا من الصواعقِ الوحشيةِ التي صنعتَها يدُ الإنسَانِ تسقطُ على لبنانَ لتَجْتَثَّ بنيته التحتيةِ وحريته الشرعيةِ .

صُراخُ السَكارى مافتئ يشقُّ الفضاءَ من حينٍ لآخرَ، فيصطدم بالسفنِ الراسيةِ في الميناء ويُوقفُ سيلَ الذكريات، لكن الذكريات تتمردُ من جديد، منذُ شهورٍ في مثل هذه الساعة تمامًا كنتُ هنا في هذا المكانَ أتقيأ ما زاد عن سعةِ معدتي من خمرٍ فأدنسُ ثيابَي بذلك اللونِ الذي لم يكنْ من قبل يثيرُ في نفسيـ إحساسًا بالخوفِ أو القرفِ، لكن مشاعري تغيَّرتْ منذُ مدةٍ، فقد وُلدتُ من جديد .

هواجسُ نفسيـ راحتْ تدورُ حولَ نفسها، وحول شمس سطعتْ في داخلي بعدَ سنوات من الظلام، الذكرياتُ راحتْ تتسابقُ إلى ذهني بدون منهجيةٍ أو ترتيب، الأحداثُ المتتالية التي رمتني الأقدارُ في طريقها تمردتْ على قوانين الطبيعة، وأخرجتني من رحمها رجلًا ناضجًا، رجالٌ ونساء كثيرون ولدوا كبارًا مثلي في مختلف أنحاء المعمورة، الأصلُ واحد، الدمُ واحدٌ، الأمُ واحدةٌ، وآدمُ واحد، والشيطانُ واحدٌ لن يرضى عن هذه الولادةِ التي يرى أنَّها لا شرعية...

أحسستُ أنَّ يدًا سحرية راحتْ تغسلُ جسدي بدموع حارة سخية، شهادةُ ميلادي هذه المرة كُتبتْ بحبرٍ أحمرَ قانٍ، وصرخةُ ولادتي الثانية حملتْ بين مقاطعها حروفًا مضيئةَ " قابيل .. رجاء ..توقف "

وحين تذكرتُ سامي، أحسستُ بغُصَّةٍ في حلقي، فقررتُ أن أتركَ المكان .

في طريقِ العودةِ إلى البيت، سطعتْ صورةُ مراد في ذهني، وتساءلت : " أتراه لا يزالُ في السجن ؟ لا أظنُّ ، فترة العقوبةِ انتهتْ منذُ مدة، سأزوره فقد اشتقتُ إليه كثيرا ".

*****

أطلَّ وجهُ مراد من شق البابِ، ولما رآني تهللَ وجهُه فرحًا، وصاح بسعادةٍ :

- منير، كيف حالُكَ يا صديقي؟

قلتُ وأنا أعانقه:

- بخيرٍ.. حمدًا لله. متى أُفرِجَ عنكَ ؟.
- منذُ ثمانيةِ أشهر، سألتُ عنكَ أهلكَ لكنَّهم أخبروني أنَّكَ مسافرٌ .

صمتَ صديقي قليلًا، ثم واصلَ كلامَه بحفاوةٍ :

- تفضَّل، ادخل يا منير.

في غرفةِ الاستقبالِ ا لتي لم يُغيِّر أثاثُها منذُ سنوات، جلستُ قبالته وأنا أتأملُ الشحوبَ الذي غزا وجهَه، أما مراد فراح يتأملُ قدمَي الجريحة.

- ما بها قدمُكِ؟ أنتَ تعرجُ، هل أنتَ مريضٌ ؟

- حكايةٌ طويلة يا صديقي، سأقصُّها عليكَ لاحقا.

- تمنيتُ لو أنَّكَ زرتني في السجن لأقدمَ لكَ اعتذاري.

- اعتذارُكَ ؟

- نعم.

- وعمّ تعتذرُ يا صديقي؟

- جعلتُكَ تنخرطُ في عصـــابةٍ دونَ علمك؟ لقد نجوتَ من الســـجن بأعجوبة، لم يتذكرْ أفرادُ العصابة لقبَكَ، كما أقروا بأنَّكَ لم تكنْ تعلمُ بأمرِ النقودِ المُزوَّرةِ، وأظنُّ أنَّ التحرياتِ قد توقفتْ عند هذا الحد .

وبعدَ برهةٍ وجيزةٍ من الصمت، نظر صديقي نحوي نظرةً غريبة ، وقال بتعجبٍ :

- لكن لو أنَّكَ كنتَ معنا يومها لقُبِضَ عليكَ مثلنا، سبحانَ الله و سعت رحمتُه كلَّ شيءٍ، كنتَ بريئًا فنجَّاكَ اللهُ من السجن.

ابتسمتُ وأخفيتُ اعترافي في داخلي.. سأل مراد بفضولٍ :

- كنتَ متحمسًا جدًا للصفقةِ الأخيرةِ يا صديقي، فما الذي أخرَّكَ يومها عن الموعدِ ؟

ولما أخبرتُه عن قصتي مع الشيخ ياسين، قال بحنانٍ :

- الخيرُ يُنتجُ خيراً، والشرّ يَلِدُ شـــوكًا وعلقمًا، " فمَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يره ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً يره ".

- لكن، ما الذي رماكَ في ذلك المستنقعِ يا صديقي؟

- شــيك بدون رصــيد. فقد دفعتُ ثمنَ العملية الجراحية التي أُجريتْ لوالدي على العمود الفقري بعد أن حصـــلتُ على المبلغ اللازم من أحد أفراد العصـــابة، ووقعتُ مقابله شــيكًا بدون رصــيد، والمؤلمُ أنَّ الأوراقَ المالية التي دفعتُها إلى العيادةِ الخاصةِ كانت مزوَّرةً .

قلتُ بشفقةٍ :

- كم قســتْ عليكَ الأيَّامُ يا صــديقي ! رغمَ إرادتِكَ وطموحك الكبيرين إلا أنَّكَ لم تحققْ شيئًا من أمانيكَ.

- كثيرةٌ هى الأمانيَ المستحيلة في هذا البلد يا صديقي.

- وفي العالمِ بأسرِه.

- وفي الأزمنة كلِّها.

- إذن لا بد أن نصبرَ حتى يجعلَ اللهُ لنا مخرجًا.

- أحسنتَ قولا يا منير، لقد علمني السجنُ معنى الصبر، فمَنْ يتقِ اللهَ يجعلْ له مخرجًا ويرزقه من حيثُ لا يحتسب، على أيِّ حالٍ لم يظلمني اللهُ ولم يقسُ علىّ فيما حدث لي، بل عاقبني على جريمتي عقابًا عادلًا.

صمتَ وهو ينظر نحوي نظرة باسمة، ثم واصل حديثه قائلا ببطء :

- أخبرني عنكَ ، هل تحصَّلتَ على منصب عمل؟

- لا، ليس بعد. في الوقت الحالي لســتُ بحاجة إلى شـهادتي، منذُ بضـعة شـــهور زرتُ لأول مرة في حياتي مزرعةً والدي التي أهملها بســـبب مرضـــه، فأعجبتُ بخضـرـــة المكان وهوائه العليل، و قررتُ بعدها أن أعيدَ إليها الحياة من جديد،وأنا الآن أ ستمتعُ فعلا بالعمل الذي أمارسه رُفقة شبّانٍ مازجتْ بين أنفســـنا الهموم المُشـــتركة، منهم مهندس زراعي أعجبتُ كثيراً بأخلاقه وصـــبرِه

وتفانيه في خدمة الأرض وخبرته في شـئون الزراعة وأسـاليبها وحتى بأناشـيده الدينية والوطنية التي كان يترنمُ بها طيلة النهار.

- أيمكنني الانضمامُ إليكم ؟

- طبعا.

- الفلاحةُ مهنةٌ عريقة جدًا يا منير...

لكنه فجأةً غيّر موضوع الحديث طالبًا مني للمرة الثانية أن أسامحه :

- رجاءً سامحني على ذنبي.

- لم تكنْ مذنبًا في حقي، كنتُ أعلمُ بكلِّ شيء.

- ماذا؟

- وهل ظننتني أبلهًا؟ المجرمُ الحقيقي هو أنا، كنتُ أريد أن أ صبح ثريًا فجنيتُ مالا حرامًا، لم تكن مذنبًا يا مراد، فقد كنتَ حمامة وقعتْ في شـبكة صيّادٍ ماهر، المجرمُ الحقير هو أنا.

- أنتَ ذكي فعلا.

- ولصٌ أيضا.

- لكنكَ لم تسرقْ أحدًا.

- بل سرقتُ شعبي.

- لننسى ما فات، لنعملَ معًا في زراعةِ الأرضِ إلى أن نجدَ عملا يناسـبُ مؤهلاتنا.

*****

في مزرعة تاميلة، شـــعرنا بنفحةٍ من نفحات الأملِ تُداعبُ أرواحَنا، وتعانقُ النسمات الـ باردةِ لصباح يومِ الواحد والعشرين من شهر مارس من عامِ ألفين وسـبعة، فَي حين راحَ بياضُ الـ ثلج الذي تراكمَ على العشـبِ الأخضرِ- يلمعُ تحتَ أشـــعةِ الشـــمسِ، وهو يدخلُ حياتَنا ليلوِّنها بلونه الجميل، فبعد هبوبِ عاصـــفةٍ ثلجيةٍ عنيفةٍ في الليلة الســـابقة، أشرقَ الصَّـــباحُ بدفء لذيذ وبأحلامٍ ســـعيدةٍ، لكنَّ الشـــمسَ احتجبتْ بالتدريجِ خلفَ جيشٍ من السَّـــحبِ، إلا أنَّها ستشرقُ بقدرة اللهِ من جديد، فبعدُ الـ شتاءِ يأتي الربيعُ، وبعدَ العوا صفِ يعمُّ الهدوء .

في هذا اليومِ، أخبرتُ أصـدقائي بأنِّي تحصَّـلتُ على منصـب عمل كطبيبٍ عام، وبأنَّ أيام شـــقائي قد انتهتْ، وتركتُ لهم مهمةَ تســـيير المزرعة، وودعتُهم على أمل اللقاء بهم خلال أيامِ العُطَلِ وانصرفتْ،

في طريق عودتي إلى المنزل، رافقتني كلماتُ الشـــيخ ياســـين التي تمردتْ على الماضي لتعودَ إلى حاضري بقوة : " فشـــلُ اليوم يا ولدي هو نجاحُ الغد، فلنشعلَ شعاعَ الأملِ والمحبةِ والخيرِ ليكونَ شمساً ساطعةً تطردُ ظلمةَ الليلِ من حياتنا، وتُهدئ من سرعةِ الأمواجِ السوداء التي قد تُعكِّرُ شاطئَ أمننا".

ولم تعدْ أحلامي صـغيرة فقط، لم تعدْ مجردَ فتاة جميلة وسـيارة وشـقة ومنصبِ عمل، بل تعدت ذلك إلى حُلمٍ آخرَ كبير، حُلمٌ يَفوقُ كَلَّ حُلم، أن أكونَ ممَنْ يحبهم اللهُ .

*****

بعدَ شـــهرٍ من التحاقي بالعمل، وحينَ حســـبتُ أنَّ آلامي قد انطفأتْ تاركةً المجالَ للســـعادة لتحلَّ محلَها في حياتي الجديدة، فاجأني ريحٌ عاصـــفٌ، وأحاطَ بي موجٌ أسودُ منَ كلِّ جانبٍ، وانطفأ شعاعُ الأملِ في يدي فاشتدَ الظلامُ، حَدَثَ ذلك وأنا أتلقَّى كلماتِ مفتشِ الشرطة:

- سيد منير، رجاءَ رافقنا، أنتَ مطلوبٌ للعدالة.

ابتســمتُ بمرارة، وأنا أركبُ ســيارةَ الشرــطة التي راحتْ تنهبُ الأرضَ نهـبًا، وهى تخطُّ سطورَ نهايةِ هـذه الروايةِ باتجاه بدَايـةِ أخرى ومصيرٍ آخر .

تمـت

بجيجل في 30 أفريل 2007

قابيــل رجـــــاء توقـــــف

لا تجعــل الوهـــم إرثــا،

يضــحى من أجلـه بالحيــاة.

السيرة الذاتيـة

عنوان الروايـة : قابيــل رجــاء توقف.

الهدف من الروايـــــة : التنديد بالعنف والدعوة لنـشر الـسلام والمحبة والخير بين الجميع.

المؤلفة : فوفو فاطمـة الزهـرة.

المستوى التعليمي : ليسانس علوم اقتصادية -جامعة سطيف-.

الوظيفة : موظفة .

الأعمال الأدبية :

- قابيل رجاء توقف.

- مشروع رواية زهرة لمزارة (أحداث الرواية حقيقية وقعت قبل وخلال الثورة الجزائرية ما بين سنتي 1926 و 1962).

الفهرست

- ✓ التقديم 3
- ✓ الإهداء 4
- ✓ المقدمة 5
- ✓ الفصل الأول 7
- ✓ الفصل الثاني 35
- ✓ الفصل الثالث 56
- ✓ الفصل الرابع 76
- ✓ الفصل الخامس 99
- ✓ الفصل السادس 125